

سلسلة المعارف الإسلامية

٣٣



الإمام الرضا عليه السلام

سيرة و تاريخ

عباس الذهبي

تحظى إصدارات المركز
بالمتابعة والتقويم والإشراف العلمي



مقدّمة المركز

الحمد لله رب العالمين .. وصلى الله على سيدنا محمد وآله الهداة الميامين الطاهرين ..
وبعد:

إن دراسة سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام تعد إحدى الركائز الأساسية في البناء العقائدي والفكري والسلوكي لديننا القويم، ذلك لأنهم عدل القرآن الكريم والامتداد الرسالي منهج النبوة، والحارس الأمين للقيم والمفاهيم الإسلامية في وجه التشويه والتحريف والضلال. إنها سيرة معصومة تكشف عن سلوك القدوة الحسنة بكل تجلياتها، وتربط المرء بالمفاهيم الإسلامية في أصالتها، وتفتح له آفاقاً جديدة في مجالات العلم والعمل والفكر والتربية والسلوك.

ومن هنا فإن الكتابة عنها لا تنتهي، مهمات تعدت الدراسات وتنوعت أساليبها، ذلك لما يجده الباحثون من حالة التواصل مع دلالاتها التي تتسع بسعة الحياة وتستغرق كل مفرداتها، وتسير بها باتجاه حركة التكامل المطلوب على صعيد الفرد والأمة.

إننا في رحاب النبي العظيم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الطاهرين عليهم السلام نعيش أروع معالم الكمال البشري، وأسمى آيات العظمة الإنسانية، وتتابع سلسلة من المواقف التي تحمل في ذاتها كل مبررات البقاء والخلود، معالم طريق، ومنازل هدى، وبيئات مجد لا يضاهي .. ذلك إذا ما وقفنا عند تلك المعالم وهذه المنارات والبيئات كما ينبغي، مرسلين النظر في أطرافها، باعثين سفراء العقول والضمائر بين ثناياها وفي أعماقها .. وقفة الدارس المتأمل، والناظر المستلهم، وهذا عين ما أردناه من هذه السلسلة الخاصة في دراسة سير المعصومين عليهم السلام .. ولعل أول ما نلمحه من نظرة

كلية الى سيرهم الغنية بالعطاء هو ان كل واحد منهم عليه السلام قد تميّز بواحدة من الخصال أو أكثر، صبغت أيامه، وربما تراثه أيضا بصبغتها المميزة، مع ما نلاحظه من خطوط التلاقي الوفيرة، والتكامل التاريخي المتجسّد في سيرة واحدة تمتد قرنين ونصف القرن.

فإذا كان لون الشهادة هو الغالب على سيرة الحسين عليه السلام واشراقه مدارس الفقه والحديث والتفسير واتساع آفاقها مع الباقر والصادق عليه السلام، ونهضة الدين العارمة المتنقلة بين السجون مع موسى الكاظم عليه السلام .. وظاهرة الإمامة المبكرة مع الجواد والهادي والمهدي عليه السلام، فثمة حلقات تاريخية شاخصه المعالم تجمع سير العظماء الخمسة مع من سبقهم، ومن هو بينهم من هداة البشر عليه السلام.

أما مع الإمام الرضا فنشهد صفحتين أخريين لهما ظهور كبير، اتخذت الأولى لونا سياسيا، في ولاية العهد التي اسندت إليه من قبل المأمون، فكيف أصبح زعيم أهل البيت وليا للعهد في دولة المأمون، وقد كان أبوه قد قضى شهيدا في سجون هارون أبي المأمون؟ وفي وقت كان أنصاره من العلويين يعلنون التمرد على الدولة في كثير من أمصارها؟ وكيف قضى أيامه في ولايته تلك؟ وكيف كانت نهاية العهد؟ انها الصفحة التي شغلت وتشغل كل من كتب ويكتب عن الرضا عليه السلام.

أما الصفحة الثانية فاتخذت طابعا علميا كلاميا، حيث كانت أسواق الجدل العقيدي قائمة، والميادين مفتوحة لا سيما للزنادقة، فكانت مواجهاته لهذا التيار من أكبر صفحات آثاره المشرقة، مع ما تقدمه من صورة عن متابعاته الجادة لمشكلات عصره الثقافية والفكرية. نرجو أن نجد في هذا الكتاب ما يقارب صفحات حياته عليه السلام ويكشف عن أبرز معالم عطائه فيها.

والله ولي التوفيق.

مركز الرسالة

المُقدِّمة

يتَّصف أئمة أهل البيت عليهم السلام بجميع المناقب والفضائل فهم من نور واحد وطينة واحدة، ومن الضروري بمكان أن نستضيء بتاريخ حياتهم الشريفة، ونستجلي مواطن العبرة فيها، وما أكثرها لنهتدي بهديهم، ولنتعرف على مواضع العظمة التي امتازوا بها عن غيرهم، تلك المواضع التي ارتفعت بهم إلى قمم الكمال الانساني.

ومن هذا المنطلق يتناول هذا الكتاب دراسة لحياة الإمام الثامن علي بن موسى الرضا عليه السلام الذي لم يكن في الطالبين في عصره مثله وكان سيد بني هاشم في زمانه ومشهوراً بالتقوى ونباهة القدر، وعظم الشأن، وحلالة المقام بين الخاص والعام. وفوق كل ذلك هو باب من أبواب الله عزوجل. كان - وما زال - منارا للهدى يقصده ملايين الزوار من كافة الاقطار، يتبركون بمرقده ويلتمسون شفاعته.

وتتأكد الحاجة إلى مثل هذا البحث إذا ما عرفنا الحالتين السياسية والثقافية التي عاصرها الإمام الرضا عليه السلام وما يمكن أن يؤدّيه من دور على هذين الصعيدين. إلى جانب ذلك فإن الأمم الحية تُحيي ذكرى عظمائها وعلمائها، وتستمد من جهودهم وجهادهم دروساً تربوية تترجمها إلى واقع عملي، فترتقي بذلك إلى سلّم أعلى من القيم والرقي الحضاري.

من هنا وجدنا من الضرورة بمكان أن ندرس هذه الشخصية الكبيرة دراسة علمية موضوعية، تعتمد التحليل قدر استطاعتها، والاستنتاج قدر جهودها، وفق منهج تكاملي يعتمد النقل والعقل معاً، وبلغة واضحة.

وقد قسّمنا الكتاب إلى مقدمة وسبعة فصول، استعرضنا في الفصل الأول: عصر الإمام عليه السلام سياسياً وثقافياً، ضمن مبحثين منفصلين.

وفي الفصل الثاني: نبحت حياة الإمام عليه السلام قبل توليه الإمامة، ضمن ثلاثة مباحث، الأول: الولادة والنشأة ومعاصرتة لمدرسة جده الإمام الصادق عليه السلام، والثاني: حياته مع أبيه ومعاناته في تلك الفترة، والثالث: يدرس قاعدة الإمامة في عصره عليه السلام فيستعرض موقف أصحابه منه، والتفاف الناس حوله، ومدح الشعراء له.

أما الفصل الثالث: فيتحدث ^١ عن الإمام عليه السلام بعد توليه الإمامة، في مبحثين، الأول: النص على إمامته، والثاني: في موقفه من الإمامة بصورة عامة.

والفصل الرابع: يتعرّف ^٢ لدوره في الحفاظ على الكيان الإسلامي من خلال ثلاثة مباحث: حواراته مع أهل الأديان والعقائد المختلفة .. وحواراته مع أهل الإسلام .. ثم أساليبه التربوية وتعاليمه الحضارية.

ونكشف في الفصل الخامس: عن دوره في الحفاظ على هوية التشيع، من خلال موقفه من الغلاة المحسوبين على التشيع .. ثم موقفه من الواقعة .. وأخيرا موقفه من دعاة الفرق الأخرى.

والفصل السادس: يكشف لنا عن آثاره العلمية ومدى صحة نسبتها له. وفي الفصل السابع - وهو الأخير: نتطرق لولاية العهد وآثارها على حياة الإمام عليه السلام، ضمن مباحث ثلاث، الأول: يتناول خلفيات ولاية العهد، والثاني: يكشف لنا عن موقف الإمام من ولاية العهد، أما الثالث فيعكس آثار ولاية العهد في شهادة الإمام الرضا عليه السلام.

ولسنا ندعي أننا قد أحطنا هنا بكل ما ينبغي الإحاطة به من حياة هذا الإمام المعصوم، غير أننا قدمنا جهدا نرجو أن نكون قد وقّنا فيه إلى تحقيق خدمة علمية وثقافية. سائلين الله أن يعصمنا من الزلل والخطأ، ومنه تعالى نستمد العون والتوفيق.

الفصل الأول

عصر الإمام الرضا ؑ سياسيا وثقافيا

إن دراسة حياة الإمام الرضا ؑ لن تكون وافية ما لم يُسلط الضوء على العصر السياسي والثقافي الذي اكتنف شخصه الشريف، الأمر الذي يكشف لنا عن منهجه في التعامل مع ما يحيط به زمانا ومكانا، وكيفية معالجته للاتجاهات الفكرية وما تفرزه سياسة عصره من مؤثرات خارجية على الفكر والعقيدة، سيما وأن الإمام الرضا ؑ شخصية فذة ظهرت بصماتها واضحة على العصر الذي عاشت فيه.

قال الذهبي: (قد كان علي الرضا كبير الشأن، أهلا للخلافة)^(١)، فقد كان إمام زمانه وكان الشاهد على عصره، لما اتصف فيه من كمالات كثيرة: « فيه العلم والحكم والفهم والسخاء والمعرفة بما يحتاج الناس إليه، فيما اختلفوا فيه من أمر دينهم، وفيه حسن الخلق وحسن الجوار، وهو باب من أبواب الله عز وجل »^(٢).

وحتى نحيط بالعصر الذي عاش فيه الإمام الرضا ؑ، سوف نستعرضه في مبحثين:
الأول: يتناول ذلك العصر من الناحية السياسية،

(١) سير أعلام النبلاء ٩: ٣٩٢ / ١٢٥.

(٢) من حديث للإمام موسى الكاظم ؑ، عن عيون أخبار الرضا ؑ ١: ٣٤، ح ٩، الباب ٤.

والثاني: مخصص للناحية الثقافية.

المبحث الأول: عصر الإمام الرضا عليه السلام سياسيا

عاصر الإمام عليه السلام عددا من الحكام العباسيين، حيث شهد بقية حكم هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ)، ومن بعده ابنه الأمين المخلوع (١٩٣ - ١٩٨ هـ) وأوائل حكم المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) الذي عهد إليه بولاية العهد.

كانت سيرة الخلفاء العباسيين شبيهة إلى حد كبير بسيرة الحكام الامويين، كلاهما مارس الظلم والعدوان على العباد، واتخذوا مال الله دولا وعباده خولا.

وأخذت رياح الفتن تعصف مثل ريح السموم على المسلمين عموما وعلى العلويين بصورة خاصة، فقد فتح العباسيون أبواب السجون وشهروا السيوف ضد الاحرار من أهل بيت الرسالة، وكان شغلهم الشاغل ملاحقة العلويين الذين يطالبون بحقهم في الحكم، لأجل تحقيق العدالة الاجتماعية.

كان الإمام الرضا عليه السلام يرقب عن كثب، بمرارة وألم تلك الأحداث والفجائع المؤلمة التي تعصف بالبيت العلوي، وكان يتبع الحكمة وسياسة النقس الطويل مع السلطة وجلالوتها، هذا الكلام لانقوله جزافا فمصاديقه كثيرة، منها: «لما خرج محمد بن جعفر بن محمد - وهو عم الإمام الرضا عليه السلام - في المدينة بعث هارون الرشيد أحد جلالوته المعروف

بالجلودي، وأمره ان ظفر به أن يضرب عنقه وأن يغير على دور آل أبي طالب، وأن يسلب نساءهم ولا يدع على واحدة منهن إلا ثوبا واحدا .. فصار الجلودي إلى باب دار أبي الحسن الرضا عليه السلام وهجم على داره مع خيله فلما نظر إليه الرضا عليه السلام جعل النساء كلهن في بيت، ووقف على باب البيت، فقال الجلودي لابي الحسن عليه السلام لا بد من أن أدخل البيت فاسلبهن كما أمرني أمير المؤمنين، فقال الرضا عليه السلام : أنا أسلبهن لك وأحلف أني لا أدع عليهن شيئا إلا أخذته، فلم يزل يطلب إليه ويحلف له حتى سكن، فدخل أبو الحسن الرضا عليه السلام فلم يدع عليهن شيئا حتى أقرطهن وخلخيلهن وإزارهن إلا أخذه منهن وجميع ما كان في الدار من قليل وكثير»^(١).

وكان واضحا من هذا الموقف مدى الحقد الدفين الذي يكنه هارون للعلويين بسبب معارضتهم التي تشكل كابوسا مؤرقا للعباسيين، لذلك شن «هارون» ومن قبله من حكام العباسيين حربا شعواء منظمة في كل الاتجاهات ضد العلويين، وقتلوهم تحت كل حجر ومدبر، ولم يسلم حتى من تظاهر بمسالمتهم فقد دسوا إليه السم، ولعل أوضح شاهد على الجو الخانق والضيق الشديد الذي تعرض له أهل البيت عليهم السلام في ذلك الوقت ماجرى للإمام موسى الكاظم عليه السلام حتى أنه سمّي بالكاظم لما كظمه من الغيظ عن أعدائه وخاصة العباسيين منهم، كان يوصي أصحابه بالكتمان والحذر وعدم المجاهرة بالمعارضة، قال لهشام بن سالم:

« من آنست منهم رشدا فألق إليه وخذ عليه الكتمان، فإن أذاع فهو

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٧٢، ح ٢٤، باب (٤٠).

الدَّبْحِ» وأشار بيده إلى حلقه ^(١). وكان يشغل أكثر أوقاته بالعبادة، ومع ذلك ألقوه في غياهب السجون أكثر من مرة على الرغم من تصريحه لهم بعدم الخروج عليهم، مع كل ذلك أمر المهدي العباسي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) بجلبه إلى بغداد وحبسه، وقال له: تؤمنني أن لا يخرج علي أو علي أحد من ولدي؟ فقال الإمام عليه السلام: « لا والله! لافعلت ذلك، ولا هو من شأني». ولما هلك المهدي وقدم هارون إلى المدينة منصرفا من عمرة رمضان سنة ١٧٩ هـ، حمل معه موسى الكاظم عليه السلام إلى بغداد وحبسه إلى أن توفي في محبسه ^(٢)، قتله السندي بن شاهك في سم جعله في طعام قدّمه إليه ^(٣).

وبذلك عاصر الإمام الرضا عليه السلام مأساة أبيه من بدايتها إلى نهايتها، تلك المأساة التي تمثل من جهة أخرى رسالة مفتوحة في خطاب التهديد والإنذار والوعيد، يتلقاها في مطلع شبابه.

وفي عصر كهذا...، كان الإمام عليه السلام يتحصّر في حدود ما هو متاح له، وكان يجهر بالحقيقة ولا تأخذه في الحق لومة لائم، حتى أن بعض أصحابه قد خاف عليه من السلطة الظالمة، والبعض دعاه إلى التمسك بالتقية.. ففي رواية ينتهي سندها إلى صفوان بن يحيى، قال:

لما مضى أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام وتكلم الرضا عليه السلام خفنا عليه من ذلك، فقلت له: إنك قد أظهرت أمرا عظيما وإنّا نخاف من هذا الطاغي

(١) الارشاد / الشيخ المفيد ٢: ٢٢٢ و ٢٣٥.

(٢) الأئمة الاثنا عشر / شمس الدين بن طولون: ٩٠.

(٣) الارشاد ٢: ٢٤٢.

- يقصد هارون - فقال: « ليجتهد جهده فلا سبيل له علي »^(١).

ومن هنا يبدو متوقعا أن العباسيين سوف يضعون الإمام عليا في دائرة الضوء، يراقبون تحركاته، ويحصون أقواله وأفعاله، ونتيجة لذلك تظاهر الامام عليا بالانصراف عن الشؤون العامة والانشغال عن مناوئة السلطة، وأوحى لها باهتمامه بشأنه الخاص وفق أسلوب بارع تنقله الرواية التالية، عن أبي الحسن الطيب، قال: لما توفي أبو الحسن موسى بن جعفر عليا دخل أبو الحسن علي بن موسى الرضا عليا السوق، فاشترى كلبا وكبشا وديكا، فلما كتب صاحب الخبر إلى هارون بذلك، قال: قد أمتنا جانبه. وكتب الزبيري أن علي بن موسى الرضا قد فتح بابه ودعا إلى نفسه، فقال هارون: واعجبا من هذا! يكتب أن علي بن موسى قد اشترى كلبا وكبشا وديكا، ويكتب فيه ما يكتب^(٢).

ويبدو أن مناورة الإمام هذه هي حالة امتصاص بارعة للضغوط والمراقبة الشديدة التي يتعرض لها من «هارون» وجواسيسه، لم يكتب لها النجاح طويلا فسرعان ما أدركت السلطة أن الإمام عليا لا يتوانى ولا يستكين ولا يكف عن كشف زيف العباسيين والمظالم التي يرتكبوها باسم الدين، وكان من الطبيعي أن تثور نائرتهم، فلم يتركوه طليق اليدين.

وبعد هلاك هارون ونشوب الخلاف الدموي بين ولديه الأمين والمأمون أصبح الطريق سالكا أمام الإمام عليا فوجد الفرصة سانحة له بعض الشيء للقيام بدور فعال في إحياء ما دثر من مآثر الإسلام الخالدة،

(١) عيون أخبار الرضا عليا ٢: ٢٤٦، ح ٤، الباب (٥٠).

(٢) عيون أخبار الرضا عليا ٢: ٢٢٢، ح ٤، الباب (٤٧).

وبما يتناسب مع تلك المرحلة الحرجة من تاريخ بني العباس السياسي الدامي، كما انفسح المجال أمام شيعته للاتصال به، وعلى ضوء هذا التحول واتساع النفوذ والتعاطف الجماهيري الكبير، قاد الإمام عليه السلام حركة فكرية واسعة سرعان ما أثمرت بوقت قصير.

وهناك روايات تاريخية تُلقي ضوءاً على حقيقة ما قلناه، فقد قام بجولة واسعة في العالم الاسلامي، وقد ابتدأ جولته من المدينة إلى البصرة لكي يجتمع مباشرة مع قواعده الشعبية ويحدثها في كل شيء، وكان من عاداته قبل أن يصل تلك المنطقة أن يرسل إليها رسولا يخبرهم بمقدمه إليهم خلال الأيام القلائل الآتية .. ثم يأتي إليها الإمام عليه السلام والجمهور متهيئاً لاستقباله والاجتماع به، فيعقد معهم اجتماعاً واسعاً يلقي عليهم الحجة بإمامته وقيادته ويطلب منهم بعد ذلك أن يسألوه، لكي يجيب على أسئلتهم في مختلف جوانب المعرفة الاسلامية ^(١).

بعد هلاك هارون وجد المأمون نفسه بعد خلعه لأخيه، في مأزق خطير، فقد كشف الناس زيف شعارات العباسيين الداعية للرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن تبين للقاصي والداني أن سياستهم غير المعلنة تقوم على التفرد والاستئثار بالسلطة، من جهة أخرى أخذت الثورات وخاصة ثورات العلويين تقض مضاجعهم، إضافة إلى الصراع الذي نشب داخل البيت العباسي، مما أضعف قوتهم وشتت شملهم، وفي الوقت الذي ثار فيه صراع عنيف بين الأخوين، اشتعلت نار الثورة في بلاد الشام، إذ ثار السفيناني وهو «علي بن عبد الله بن خالد بن معاوية بن أبي سفينان» ودعا

(١) سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الثاني.

الى نفسه، واستولى على دمشق والمنطقة المحيطة بها، وكاد أن يقيم حكما أمويا في بلاد الشام، لولا أن نشب نزاع بين اليمينيين والمضريين، أضعف قوته، فنجح الأمين بعد جهود كثيرة استمرت أكثر من عامين في القضاء عليها^(١)، كل تلك العوامل دفعت المأمون إلى الامسك بزمام الامور، وكان معروفا بالدهاء والحنكة السياسية، اذ وجد أن السيطرة على الوضع لا تتم إلا بانهاء القطيعة مع العلويين الذين اشتد ساعدتهم وتزايدت ثورتهم وتوسعت قواعدهم الجماهيرية، ولهذا قام باستدعاء الإمام الرضا عليه السلام من المدينة متظاهرا بأنه سوف يتنازل له عن الخلافة، أو على الأقل يوصي له بولاية العهد، خصوصا وهو يعلم ان الإمام هو زعيم الطالبين، وهذا التحول السياسي المدروس بدهاء أبدل الظرف السياسي الخانق الذي كان يحيط بالامام عليه السلام إلى نوع من الحرية السياسية من حيث الظاهر، فبينما كان هارون يورد العلويين حياض الموت والذل والجوع، وأراد لهم أن يأخذوا دور التابع الذليل الذي لاحول له ولاقوة، أخذ المأمون يقرب العلويين ويتودد إليهم ويغدق عليهم ويشيد بفضلهم ويتظاهر بالدفاع عن حقهم بالحكم، كما أرجع فدكا على ولد فاطمة عليها السلام، وغدا دورهم دور الشريك الفاعل، لا دور التابع الخامل، كما كان الحال في عهود أسلافه.

وكل من يتتبع المجرى العريض لهذا التحول السياسي، يجد أن المأمون أراد أن لا يسير عكس التيار، فالتيار الجماهيري العريض كان لصالح العلويين في زمانه، وكان تيار الحب للعلويين قد تعاضم حتى في عقر داره

(١) جهاد الشيعة / الدكتورة سميرة الليثي: ٣١٦.

وبالتحديد في عاصمته «مرو» بخراسان. زد على ذلك زيادة تحركات الإمام الرضا عليه السلام في المدينة وهي العاصمة الروحية للخلافة الاسلامية، ويكفينا الاستدلال على خشية المأمون من العلويين عامة ومن زعيمهم الإمام الرضا عليه السلام على وجه الخصوص، مقاله المأمون لقادة العباسيين عندما وجهوا إليه اللوم والعتاب على تقليده ولاية العهد للرضا عليه السلام، قال: قد كان هذا الرجل مستترا عنا يدعو الناس إلى نفسه، فأردنا أن نجعله ولي عهدنا، ليكون دعاؤه إلينا، وليعرف أن الملك والخلافة لنا، وليعتقد فيه المعتقدون أنه ليس مما ادعى لنفسه في قليل ولا كثير، وأن هذا الأمر لنا دونه، وقد خشينا إن تركناه على تلك الحالة أن ينشق علينا منه ما لا نقدر على سدّه .. وأن يأتي علينا ما لا طاقة لنا به ..^(١).

هذا النص يعكس لنا بدون لبس مدى خوف المأمون من تحرك الإمام ومن اتساع قاعدته الجماهيرية، وقد تمكن المأمون من خلال مخطط ولاية العهد من تطويق الإمام وعزله عن الناس ووضعه في الإقامة الجبرية في خراسان، لم يضعوه - هذه المرة - في السجون المظلمة كما كان الحال مع أبيه الكاظم عليه السلام من قبل، بل وضعوه في قصور شاهقة وأبنية فارهة، لم يكن التغيير - اذن - في الجوهر بل في الظاهر، وقد كان الإمام عليه السلام يشتكي على الدوام من الوضع الخانق الذي يحيط به، فعيون السلطة ترصد حركاته وسكناته، وتحجب عنه أقطاب شيعته، وكان محاطا بالدسائس والمؤامرات التي تحاك هناك بين أقطاب السلطة أنفسهم من أجل الايقاع به ومنعه من الاتصال بالناس.

(١) دلائل الإمامة / الطبري: ٣٤٠ - ٣٨٠، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٨١، ح ١٦٠، الباب (٤١).

ومن أجلى الشواهد على ذلك أن المأمون وجد في يوم عيد انحراف مزاج أحدث عنده ثقلا عن الخروج إلى الصلاة بالناس، فقال لأبي الحسن علي الرضا عليه السلام: يا أبا الحسن قم وصل بالناس، فخرج الرضا عليه السلام وعليه قميص قصير أبيض وعمامة بيضاء لطيفة، وفي يده قضيب .. فلما رآه الناس هرعوا إليه وانثالوا عليه لتقبيل يديه، فأسرع بعض الحاشية إلى الخليفة المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين تدارك الناس واخرج وصل بهم وإلا خرجت الخلافة منك الآن، فحملة على أن يخرج بنفسه وجاء مسرعا، والرضا عليه السلام بعد من كثرة زحام الناس عليه لم يخلص إلى المصلى، فتقدم المأمون وصلّى بالناس ^(١).

ومن هنا يبدو متوقعا أن يسعى المأمون للتخلص من الإمام عليه السلام عن طريق دس السم إليه، كما سيأتي في محله من هذا البحث.

وخلاصة القول أن الإمام الرضا عليه السلام عاصر أحداثا سياسية جسيمة عصفت بالبيت العلوي خاصة وبالمسلمين عامة، فقد قضى شظرا كبيرا من عمره زمن هارون يشاهد مأساة العلويين، وخاصة بعد سجن أبيه عليه السلام ومن ثم اغتياله بالسم، ومعاصرته للصراع الدموي الذي تفجر داخل الكيان العباسي بين الاخوين (الأمين والمأمون) حيث انقسمت الدولة العباسية التي كانت كيانا واحدا إلى شطرين متحارين.

وفي خضم هذه الاحداث وقف الامام عليه السلام بكل شموخ مدافعا عن صرح الإسلام العظيم، معرّبا السلطة مما كانت تذيعه من شرعية وجودها السياسي.

(١) كشف الغمّة / أبي الحسن الإربلي ٣: ٥٨، وانظر: الإرشاد ٢: ٢٦٤، وعبون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٦٠ / ٢١٦، باب (٤٠).

المبحث الثاني: عصر الإمام الرضا عليه السلام ثقافيا

لقد رافق عصر الإمام الرضا عليه السلام حركة فكرية بلغت الغاية في نشاطها وانتشارها، فقد اتسعت رقعة الاسلام وكثرت الفتوحات، واتصل المسلمون بالامم الاخرى من فرس وروم وغيرهم، وكان المأمون أول من ترجم علوم الحكمة وقرب أهلها، فظهرت - على اثر ذلك - مقالات غريبة وتيارات أجنبية عن الاسلام، وكان الملحدون يلقبون الشبهات، والمرجئة يساندون حكام الجور، والمغالون يدعون مع الله آلهة أخرى والخوارج يكفرون المسلمين، وكثير من الرواة يضعون الأحاديث بطلب من الحكام لاغراض سياسية أو مذهبية. وكانت صور الصراع الفكري تتمثل في الخطابات المتبادلة ومجالس المناظرة وعن طريق الاستعانة بالشعراء في الدفاع عن آراء كل فريق وهجاء الفريق الآخر، فقد كان لكل فريق شعراءه، وعموما كان الشعر من أمضى الاسلحة ^(١).

وفي هذا العصر انتشر التشيع في كل قطر، وبرزت معالمه، وتركزت أسسه وانتشر فقه الشيعة وناظر متكلموهم خصومهم في مسائل التوحيد والعدل وعصمة الأنبياء وما إلى ذلك من مسائل عقيدية، كل ذلك بفضل الجهد العلمي الكبير الذي اضطلع به الإمام الصادق عليه السلام، وكان من نتائج هذا الجهد المبارك أن عرف المذهب على حقيقته، اصولا وفروعا، ومن هنا اطلق على الشيعة لفظ الجعفرين وعلى فقهمم الفقه الجعفري تيمنا

(١) انظر: جهاد الشيعة: ٢١٢.

باسم الإمام الصادق عليه السلام .

فقد انطلق الإمام الصادق عليه السلام إلى تأسيس مدرسة علمية عظيمة في مطلع القرن الهجري الثاني، تخرجت منها كوادر علمية كثيرة في مجالات عديدة من المعرفة. وعمد الإمام الكاظم عليه السلام على تعميق أسس مدرسة أبيه الصادق عليه السلام وقام بتوضيح معالمها أكثر فأكثر، ولكن الظروف الاستثنائية التي عاشها وقضاءه شطرا كبيرا من عمره في السجون لم تمكنه من تحقيق سائر اهدافه الشريفة في احياء السنة النبوية الشريفة على ضوء مدرسة أبيه عليه السلام ، فبلغ به الأمر أن يبعث إلى هشام بن الحكم بأن يكف عن الكلام نظرا لخطورة الموقف، فكف هشام عن ذلك حتى مات المهدي العباسي (١). مع ذلك استغل الإمام الكاظم عليه السلام فترات الهدوء النسبي لنشر الاحكام والتعاليم الاسلامية الصافية، وكان العلماء والرواة لا يفارقونه ولا يفترقونه عنه، يسجلون أحاديثه وأبحاثه.

روى السيد ابن طاووس: أنه كان جماعة من خاصة أبي الحسن موسى عليه السلام من أهل بيته وشيعته يحضرون مجلسه، ومعهم في أكمامهم ألواح ابنوس وأميال، فإذا نطق بكلمة وأفتى في نازلة أثبت القوم ما سمعوا منه في ذلك (٢).

تجدر الإشارة إلى أن علم الخلاف كان قد وجد منذ نهاية القرن الأول الهجري، وطوال القرن الثاني بين مدرستي أهل الرأي وأهل الحديث، وثار الجدل بينهم، وانبرى كل فريق يدافع عن رأيه ويشكك بالمدرسة

(١) انظر: رجال الكشي: ٢٢٧، رقم الترجمة (١٣١).

(٢) مهج الدعوات / ابن طاووس: ٢١٩.

الآخري، وينال من علمائها والقائمين عليها. وكان أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذا العصر ينتقدون مدرسة الرأي والقياس بشدة، ويؤكدون على أن القياس من فعل إبليس. وكان الإمام الرضا عليه السلام ينشر آراء مدرسة أهل البيت عليهم السلام العقائدية منها والفقهية، وكان في فترة ولاية العهد يعقد المؤتمرات والندوات في تعبيرنا المعاصر، يروى أن المأمون جمع علماء الملل والنحل مثل الجاثليق ورأس الجالوت ورؤساء الصابئة والنصارى والمتكلم سليمان المروزي، فكان الإمام الرضا عليه السلام يدحض حججهم ويصحح مفاهيمهم الخاطئة، وينشر الوعي الإيماني حتى أسلم على يديه بعض الملاحدة والنصارى ^(١). وكانت شهرته قد طبقت الآفاق، وغدا شخصه العظيم حديث الساعة حينئذ، ومحط اهتمام العلماء لغزارة علمه ومتانة استدلاله، وقد حفظ لنا التاريخ روائع رضوية كثيرة في هذا المجال. هذا وفي الوقت الذي كان فيه المأمون العباسي يقوم بترجمة ونشر الفلسفة اليونانية، كان الإمام الرضا عليه السلام يقوم بنشر الثقافة القرآنية الخالصة، فقد كان جوابه كله وتمثله انتزاعات من القرآن المجيد ^(٢).

وعموماً كان عصره (سلام الله عليه) عصر الجدل والنظر والبحث، وتعبير معاصر عصر «التعددية الثقافية» فقد حاور الإمام عليه السلام - كما سيأتي في الفصل الخامس - أهل الملل والنحل والأهواء وعلماء المذاهب الإسلامية. وعلى العكس من الجو السياسي السيء والمضطرب، الذي عاصره الإمام عليه السلام كان الجو الثقافي يمتاز بالتفتح النسبي، ملائماً للحوار

(١) انظر: أعيان الشيعة ٢: ١٤.

(٢) انظر: الأنوار البهية: ١٧٩.

وعرض الافكار، وكان المأمون يشجع هكذا حوار لاشغال الناس في مشاكل جانبية بعيدا عن مشاكل الحكم والسياسة، بدليل أن المأمون الذي كان في زمن ضعفه وصراعه مع أخيه الأمين يشجع على الحوار والنظر وكان ينصر التشيع في الظاهر، تغير موقفه هذا بعد وفاة الإمام الرضا عليه السلام بعد أن وطد أركان حكمه فقمع الرأي الآخر وتبنى فكر المعتزلة وأظهر فتنة خلق القرآن عام (٢١٢ هـ -)، وفرضها بالقوة وأقام محاكم تفتيش من نوع آخر، يمتحن القضاة والمحدثين بالقول بخلق القرآن، وفتك بوحشية وقسوة بكل من عارض هذه المسألة أو أبدى حياده حولها، فأظهر البعض منهم موافقته وهم كارهون.

* * *

الفصل الثاني

الامام الرضا عليه السلام قبل تولي الإمامة

المبحث الأول: الولادة والنشأة

أولاً: الولادة

يوجد اختلاف بين المحدثين الشيعة في تحديد اليوم والشهر والسنة التي ولد فيها الإمام الرضا عليه السلام: فقليل إن مولده كان بالمدينة سنة ١٤٨ هـ -^(١) وروى الصدوق أنه ولد بالمدينة يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ١٥٣ هـ - بعد وفاة أبي عبد الله عليه السلام بخمس سنين^(٢). أما المحقق الأربلي فيساند هذا الرأي، ولكن يذكر أنه ولد في الحادي عشر من ذي الحجة^(٣). وأشار الشيخ الطبرسي إلى القولين ولكن لم يرجح أحدهما^(٤). وذكر الذهبي: أنه ولد بالمدينة في سنة ١٤٨ هـ - عام وفاة جدّه الإمام

(١) انظر: الإرشاد ٢: ٢٤٧، والكافي ١: ٤٨٦ / ١١.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٨، ح ١، باب (٣).

(٣) كشف الغمّة ٣: ٥٣.

(٤) اعلام الوری ٢: ٤١.

الصادق عليه السلام^(١)، وهو الموافق للقول الأول.

من جانب آخر وردت روايات عن جدّه الإمام الصادق عليه السلام مفعمة بشحنة عاطفية كبيرة، تبشر بولادته المباركة وتكشف عن المكانة المرموقة التي سيحتلها في العالم الإسلامي، فعن يزيد بن سليط، قال: لقينا أبا عبد الله عليه السلام في طريق مكة ونحن جماعة، فقلت له: بأبي أنت وأمي أنتم الأئمة المطهرون والموت لا يعرى منه أحد، فحدثني شيئا القيه إلى من يخلفني، فقال لي: « نعم هؤلاء ولدي، وهذا سيدهم » وأشار إلى ابنه موسى عليه السلام « ... يخرج الله تعالى منه غوث هذه الأمة وغياتها وعلمها ونورها وفهمها وحكمها، خير مولود وخير ناشئ يحقن الله به الدماء ويصلح به ذات البين ويلم به الشعب^(٢) ويشعب به الصدع^(٣) ويكسو به العاري ويشعب به الجائع ويؤمن به الخائف وينزل به القطر ويأتمر له العباد، خير كهل وخير ناشئ، يبشر به عشيرته قبل أوان حلمه، قوله حكم وصمته علم، يبين للناس ما يختلفون فيه .. »^(٤).

ثانياً: النشأة

نشأ الإمام الرضا عليه السلام بين أحضان بيت أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فهو ابن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام الذي كان

(١) سير أعلام النبلاء ٩: ٣٨٨، ترجمة ١٢٥.

(٢) أي يسد به الخلل.

(٣) أي يجمع به الشق والفرقة.

(٤) اعلام الوری ٢: ٤٨، وعيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٣، ح ٩٦، باب (٤).

(أعبد أهل زمانه وأفقههم وأسماهم كفاً، وأكرمهم نفساً... وكان الناس بالمدينة يُسمونه زين المتجهّدين، ويعرف بالعبد الصالح)^(١).

ولما كانت الفروع تتبع الأصول، والأصل الطيب يعطي ثمراً طيباً فمن الطبيعي والحال هذه أن يتحلّى الابن بتلك الصفات الطيبة والحصول الحميدة، يقول الشيخ المفيد: « كان - أي الرضا عليه السلام - أفضل ولد أبي الحسن موسى: وأنبَهُهُم وأعظَمُهُمُ قدراً وأعلمهم وأجمعهم فضلاً »^(٢).

أما أمه فعلى الرغم من وجود الاختلاف في اسمها وكنيتها، فهناك اتفاق على كونها من أفضل نساء زمانها من حيث العقل والدين.

قيل: تسمى الخيزران، وقيل: أروى، وتلقب بشقراء النوية. وقيل أمّه أم ولد يقال لها أم البنين وقيل: اسمها تكتم، وقد يرجح ان الأخير هو اسمها، وما سبقه ألقاب لها، ويستدل لهذا بقول بعض مادحي الإمام:

ألا إن خير الناس نفساً ووالداً ورهطاً وأجاداً علي المعظم
أنتناب به للعلم والحلم ثامناً إماماً يؤدي حجة الله (تكتم)^(٣)
والشيخ الصدوق يشير إلى القول الأخير برواية عن محمد بن يحيى الصولي ويقول: إن أمه هي أم ولد تسمى تكتم. ثم يروي عن عون بن محمد الكندي، قال: سمعت أبا الحسن علي بن ميثم يقول: ما رأيت أحداً قط أعرف بأمر الأئمة عليهم السلام وأخبارهم ومناكحهم منه، قال: اشترت حميدة

(١) انظر: الارشاد ٢: ٢٣١، ٢٣٥.

(٢) الارشاد ٢: ٢٤٤.

(٣) راجع: الارشاد ٢: ٢٤٧، اعلام الوری ٢: ٤١، دلائل الإمامة: ٣٤٨.

المصفاة وهي أم أبي الحسن موسى بن جعفر - وكانت من أشرف العجم - جارية مولدة (١) واسمها تكتم، وكانت من أفضل النساء في عقلها ودينها وإعظامها لمولاتها حميدة المصفاة، حتى أنها ما جلست بين يديها منذ ملكتها اجلالاً لها، فقالت لابنها موسى عليه السلام: يا بني ان تكتم جارية ما رأيت جارية قط أفضل منها، ولست أشك أن الله تعالى سيظهر نسلها ان كان لها نسل، وقد وهبتها لك فاستوص خيراً بها، فلما ولدت له الرضا عليه السلام سماها الطاهرة (٢).

ولقد تنامت شخصية الإمام الرضا عليه السلام في السمو والجلال حتى تطرزت بألقاب لامعة، تعكس جوانب مختلفة من أخلاقه وآدابه، منها: الصابر والرضي، والوحي، والزكي، والولي، ونور الهدى، وسراج الله، والفاضل، وقهر عين المؤمنين، ومكيد الملحددين، وأشهر ألقابه عليه السلام هو الرضا (٣).

قيل: إن المأمون العباسي هو الذي أطلق عليه لقب «الرضا» حين عهد إليه ولاية العهد، ولكن الإمام أبا جعفر الجواد عليه السلام قد نفى ذلك بشدة، فعن البنزطي، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام ان قوما من مخالفكم يزعمون أن أباك انما سماه المأمون الرضا لما رضيه لولاية عهده، فقال: « كذبوا والله وفجروا بل الله تبارك وتعالى سماه الرضا لأنه كان رضي الله

(١) المولدة: هي التي ولدت بين العرب، ونشأت مع أولادهم.

(٢) اعلام الوری / الطبرسي ٢: ٤٠، ح ٢، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٤، باب (٢)، كشف الغمة ٣:

(٣) دلائل الإمامة: ٣٥٩، الإمام الرضا عليه السلام، لقبه.

عزَّجَل ورضي رسوله والأئمة بعده في أرضه». قال: فقلت له: ألم يكن كل واحد من آباءك الماضين رضي الله عزَّجَل ورسوله والأئمة بعده؟ فقال: « بلى »، فقلت: فلم سمِّي أبوك عليه السلام من بينهم الرضا؟ قال: « لأنه رضي به المخالفون من أعدائه كما رضي به الموافقون من أوليائه، ولم يكن ذلك لأحد من آباءه عليه السلام فلذلك سمِّي من بينهم الرضا »^(١).

كان يكنى بأبي الحسن، وورد على لسان بعض الرواة أبو الحسن الثاني، قال علي بن يقطين: كنت عند العبد الصالح - يعني الإمام الكاظم عليه السلام - فقال: « يا علي بن يقطين، هذا علي سيد ولدي، اما أنه قد نخلته كنيته »^(٢).

معاصرته لمدرسة جدّه

قد تقلّم أن الإمام الرضا عليه السلام قد ولد في نفس السنة التي توفي فيها جدّه الامام الصادق عليه السلام - أي في سنة ١٤٨ هـ - على قول جمع كبير من العلماء والمؤرخين مثل الشيخ المفيد في الإرشاد^(٣)، والكليني في الكافي^(٤)، والطبرسي في أعلام الوري^(٥) .. وغير هؤلاء كثير.

وهناك من يذهب أبعد من ذلك، فيرى أنه ولد بعد وفاة جدّه بخمسة

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٢، ح ١، باب (١).

(٢) روضة الواعظين / الفتال النيسابوري ١: ٢٢٢.

(٣) الإرشاد ٢: ٢٤٧.

(٤) أصول الكافي ١: ٤٠٦.

(٥) اعلام الوري ٢: ٤٠.

أعوام^(١). وعليه يصح القول بأنه لم يعاصر مدرسة جدّه، وقد أشرنا إلى أن الإمام الصادق عليه السلام كان يتمنى أن يدرك حفيده الرضا عليه السلام، مع ذلك فاننا لانتجاوز الحقيقة إذا ما ادعينا بأن الإمام الرضا عليه السلام قد عاصر مدرسة جدّه من الناحية العلمية، فإذا تأملنا الحقبة الزمنية التي تأسست فيها مدرسة الامام الصادق عليه السلام في مطلع القرن الثاني الهجري، تلك المدرسة الكبرى التي امتدّت اشعاعاتها إلى عصور ما بعد التأسيس، وانتشر شذاها إلى جميع البلدان. يقول الشيخ المفيد: نقل الناس عن الإمام الصادق عليه السلام من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر ذكره في البلدان، ولم ينقل عن أحد من أهل بيته ما نُقل عنه، ولا لقي أحد منهم من أهل الآثار ونقله الأخبار، ولا نقلوا عنهم كما نقلوا عن أبي عبد الله عليه السلام فإن أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرّواة عنه من الثّقات، على اختلافهم في الآراء والمقالات، فكانوا أربعة آلاف رجل^(٢).

لقد اغتنم الإمام الصادق عليه السلام فترة الصراع الدائر بين الأمويين والعباسيين، فشمّر عن ساعد الجدد، وقام بجهد علمي كبير من أجل التعريف بعلوم أهل البيت عليهم السلام، وغدا مظلة رحبة يأوى إليها طلاب العلم والمعرفة الحقّة.

ولما قوي ساعد العباسيين وخلا لهم الجو بعد انتصارهم على الأمويين، استشعروا الخطر المحدق بهم من العلويين هذه المرّة، فأخذوا

(١) أعيان الشيعة ٢: ١٢.

(٢) الارشاد ج ٢: ١٧٩.

يضيّقون الخناق عليهم، ولم يقتصر التضييق على الأرزاق، وحرية التعبير، بل سُدَّ عليهم المنافذ والمجالات من جهاتها، ومن هذه المنافذ نافذة العلم والتدريس، فبينما كان الطريق العلمي يكاد يكون مفتوحاً على مصراعيه أمام الإمام الصادق عليه السلام حتى وصلت مدرسته إلى أوج مجدها العلمي، وجد نفسه أمام عاصفة التحول السياسي التي أطاحت بالحكم الأموي وجاءت بالحكم العباسي، الذي وقف بعنف تجاه كل التيارات التي يشتم من ورائها رائحة السياسة، وفي مقدمتها التيار العلوي الذي كان بعض رجاله يقودون حركات تمرد على السلطة العباسية هنا أو هناك ..

وجاء دور أبي جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس، فلم يستطع تحبّل ما يراه من امتداد مجد الإمام جعفر الصادق عليه السلام فمنذ تولي السلطة (لم يهدأ خاطره، فلم يزل يقلب وجوه الرأي، ويدير الحيل للتخلص من الامام الصادق عليه السلام لأن مدرسته قد اكتسبت شهرة علمية بعيدة المدى فلم ترق له هذه الشهرة الواسعة) ^(١).

ومن الشواهد على ذلك ما رواه نقلة الآثار من خبره مع المنصور لما أمر الرّبيع باحضار أبي عبد الله عليه السلام فأحضره، فلما بصر به المنصور، قال له: قتلني الله إن لم أقتلك، أتلحد في سلطاني وتبغيني الغوائل؟! فقال له أبو عبد الله عليه السلام: « والله ما فعلت ولا أردت، فإن كان بلغك فمن كاذب .. » ^(٢). فأتجه الى التضييق على الإمام الصادق عليه السلام من حياته.

(١) الإمام الصادق / د. حسين الحاج: ٨.

(٢) الارشاد ٢: ١٨٢.

المدرسة السرية

نهل الإمام موسى الكاظم عليه السلام من فيض غدير هذه المدرسة المباركة مدة عقدين من الزمن، فقد ولد سنة ١٢٨ هـ - أو ١٢٩ هـ - على اختلاف الروايتين - وتوفي أبوه الصادق عليه السلام عام ١٤٨ هـ -، فكان من الطبيعي - بعد انتقال الإمامة إليه - أن يشغل كرسي الاستاذية مكان أبيه، (.. واجتمع جمهور شيعة أبيه على القول بإمامته والتعظيم لحقه والتسليم لأمره، ورووا عن أبيه عليه السلام نصوصا عليه بالإمامة، وإشارات إليه بالخلافة، وأخذوا عنه معالم دينهم، ورووا عنه من الآيات والمعجزات ما يُقطع به على حجته وصواب القول بإمامته) ^(١).

من أجل ذلك كان الاستاذ الأكبر بعد أبيه في هذه المدرسة الكبرى (فقد روى عنه العلماء في فنون العلم من علم الدين وغيره ما ملأ بطون الدفاتر وألّفوا في ذلك المؤلفات الكثيرة المروية عنه بالأسانيد المتصلة، وكان يُعرف بين الرواة بالعالم) ^(٢).

قال الشيخ المفيد: وقد روى الناس عن أبي الحسن موسى عليه السلام فأكثرُوا، وكان أفقه أهل زمانه وأحفظهم لكتاب الله .. ^(٣).

كان هذا في أجواء قد تعرّس عليه السلام فيها لضغط متزايد من حكام عصره العباسيين، ولكنه وعى المتغيرات السياسية جيدا، فأخذ يث

(١) الإرشاد ٢: ٢١٤.

(٢) الارشاد ٤: ٨٤.

(٣) الارشاد ٢: ٢٣٥.

علموه ومعارفه بصورة سرية، ويتصرف في حدود الهامش الضيق المتاح له، وقد أشرنا لرواية هشام بن سالم التي ذكر فيها أن الإمام الكاظم عليه السلام دعاه إلى التمسك بالسرية التامة، فإذا أذاع فهو الذبح! وأشار بيده إلى حلقه.

وقد وصل الأمر في زمانه الى حد (أن الراوي إذا روى الحديث عنه لا يسنده إليه بصريح اسمه، بل بكناه: مرة بأبي ابراهيم، وأبي الحسن، وبألقابه الاخرى؛ العبد الصالح، والعالم وأمثالهما، وبالإشارة إليه تارة كقوله عن رجل، اذ قلما تجد اسمه الشريف صريحا في حديث، لشدة التقية في أيامه وكثرة التضيق عليه ممن عاصره من العباسيين كالمصور والمهدي والهادي، وبقي سلام الله عليه يحمل إلى السحن مرة ويطلق منه أخرى أربعة عشر سنة، وهي مدة أيامه مع الرشيد)^(١) إلى أن انتهت رحلة العذاب التي قطعها بوفاته مسجوناً مسموماً.

المدرسة السّيارية

مع كل ذلك واصلت مدرسة أهل البيت عليهم السلام عطاءها العلمي ولكن في الخفاء والتستر، وقد قيض الله تعالى لها رائداً جديداً، وعلماً خفاقاً، ذاع صيته في جميع الآفاق، ألا وهو الإمام الرضا عليه السلام.

صحيح أن امامنا الرضا عليه السلام لم يعاصر جدّه تاريخياً، ولكن الصحيح أيضاً أنه عاصره علمياً، وذلك لأن والده الكاظم عليه السلام كان قد عاش مع أبيه الصادق عليه السلام مدة عقدين من الزمن، والامام الرضا عليه السلام - بدوره - قد عاصر

(١) جهاد الشيعة: ٣٠٠.

أباه ثلاثة عقود من الزمن.

وقد استغل إمامنا فترة الصراع بين الأخوة - الأعداء (الأمين والمأمون) فرفع راية الهدى واستخدم أسلوبا جديدا لتفعيل مدرسة أهل البيت عليهم السلام يمكن أن نطلق عليه أسلوب «المدرسة السّيارة» بعد أن وجد أن مدرسة أهل البيت عليهم السلام قد حوصرت في المدينة المنورة. هذا الاستنتاج لا نذهب إليه جزافا، فهناك أقوال وروايات تشهد على أن الإمام الرضا عليه السلام - عميد هذه المدرسة - كانت له جهود قيّمة في عدة من بلدان العالم الإسلامي ومدنه الهامة وترك فيها آثارا جليّة، ولعل من أهمها:

أولا: المدينة المنورة

كان الإمام الرضا عليه السلام يقوم بحركة علمية نشطة، حتى أن بعض الشيعة - كما أسلفنا - قد حذره من سيف هارون الذي يقطر دما - حسب تعبيرهم - ودعوه إلى مراعاة التقية والتبليغ بسرية.

ومما يعكس مدى نشاطه العلمي في المدينة، ما ورد من أقوال أبرز علماء التراجم والرجال بحقه، أكد «الواقدي» على أن الإمام الرضا عليه السلام كان يفتي بمسجد رسول الله رغم حداثة سنّه، قال: «سمع علي الحديث من أبيه وعمومته وغيرهم، وكان ثقة، يفتي بمسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو ابن نيف وعشرين سنة، وهو من الطبقة الثامنة من التابعين من أهل المدينة»^(١).

أما الحافظ الذهبي فقد أشاد بمكانة الرضا عليه السلام العلمية ومنزلته الدينية معا، عندما قال: «كان من العلم والدين والسؤدد بمكان يقال: أفتى وهو

(١) تذكرة الخواص / سبط ابن الجوزي: ٣٥١ - ٣٥٢.

شاب في أيام مالك» (١).

ثانياً: البصرة

جاء في بعض الروايات أن الإمام الرضا عليه السلام سافر إلى البصرة بعد وفاة أبيه الإمام الكاظم عليه السلام للتدليل على إمامته، وإبطال شبهة المنحرفين عن الحق، وقد نزل ضيفاً في دار الحسن بن محمد العلوي، وعقد في داره مؤتمراً عاماً ضم جمعاً من المسلمين كان من بينهم عمرو بن هدايب، وهو من المنحرفين عن آل البيت عليهم السلام والمعادين لهم، كما دعا فيه جاثليق النصارى، ورأس الجالوت، والتفت إليهم الإمام فقال لهم:

«إني إنما جمعتكم لتسألوني عما شئتم من آثار النبوة وعلامات الإمامة التي لا تحدونها إلا عندنا أهل البيت، فهلّموا..» وتقدم كل واحد منهم أمام الإمام فسأله عن مسألة فأجاب عليه السلام عنها بلغته، فبهر القوم وعجبوا.. (٢) والرواية طويلة اقتصرنا منها على موضع الحاجة.

ثالثاً: الكوفة

وقصد الإمام الرضا عليه السلام الكوفة، وهناك استقبل استقبالاً حافلاً يليق بشأنه، ونزل ضيفاً في دار حفص بن عمير اليشكري، وقد احتف به العلماء والمتكلمون وهم يسألونه عن مختلف المسائل، وهو يجيبهم عنها، كان بمثابة «مؤتمر عام» حضره بعض علماء النصارى واليهود وجرت بينه

(١) سير أعلام النبلاء ٩: ٣٨٨، ترجمة ١٢٥.

(٢) الخرائج والجرائح / قطب الدين الراوندي ١: ٣٤٢ - ٣٤٣، ح ٦، باب (٩).

وبينهم مناظرات عرض فيها حججاً مجلجلة تفرع آذانهم وتفحم ألسنتهم^(١).

رابعاً: نيسابور

وفي مروره بنيسابور قاصداً مرو أنساب صوته المهاديء يلف أرجاء هذه المدينة ليلا مسمع الأسماع برفق، ويلج القلوب المتعطشة إلى المعرفة الحقة، فقد عمت الفرحة والبهجة أرجاء المدينة حين قدومه إليها، وقد استقبل استقبالاً شعبياً منقطع النظير، فلم تشاهد نيسابور في جميع تاريخها مثل ذلك الاستقبال، وكان في طليعة المستقبلين كبار العلماء والفضلاء ورجال الحديث، وعرض له أشهر حفاظ الحديث من أهل السنة في ذلك الزمان كأبي زرعة الرازي^(٢)، ومحمد بن أسلم الطوسي^(٣) ومعهما خلائق لا يحصون من طلبة العلم مع اقطاب كل فن فالتمسوا منه أن يتحفهم بحديث سمعه من آبائه عن رسول الله ﷺ، فأتحفهم بحديثه الذي عرف اسناده بسلسلة الذهب^(٤)، وفي ذلك يقول عبد السلام بن صالح أبو الصلت

(١) أنظر: الخرائج والجرائح ١: ٢٠٤ - ٢٠٦.

(٢) أبو زرعة الرازي، يطلق على ثلاثة، والظاهر أن المراد هنا أبو زرعة الكبير الإمام الحافظ عبيد الله بن عبد الكريم، لكن قيل في ولادته أنها كانت بعد نيف ومائتين، وذكر ابن أبي حاتم أن أبا زرعة هذا سمع من عبد الله بن صالح العجلي، والحسن بن عطية بن نجیح وهما ميمَن توفي سنة ٢١١ هـ، وبذلك تثبت معاصرته للإمام الرضا عليه السلام. راجع: سير اعلام النبلاء ١٣: ٦٥ / ٤٨ و ١٧: ٥١ / ٢٠.

(٣) محمد بن أسلم الطوسي: هو ابن سالم بن يزيد، الإمام الحافظ الرياني، شيخ الإسلام أبو الحسن الكندي مولاهم الخراساني الطوسي. مولده حدود ١٨٠ وتوفي سنة ٢٤٢ هـ - بنيسابور. سير اعلام النبلاء: ١٢: ١٩٥ / ٧٠.

(٤) أنظر: الفصول المهمة / ابن الصباغ المالكي: ٢٥٠.

الهروي: كنت مع علي بن موسى الرضا عليه السلام حين رحل من نيسابور وهو راكب بغلة شهباء فإذا محمد بن رافع ^(١) وأحمد بن الحرث ^(٢) ويحيى بن يحيى ^(٣) وإسحاق بن راهويه ^(٤) وعدة من أهل العلم قد تعلقوا بلجام بغلته في المربعة، فقالوا: بحق آبائك الطاهرين حدثنا بحديث سمعته من أبيك فاخرج رأسه من العمارية وعليه مطرف خز ذو وجهين، وقال: «سمعت أبي العبد الصالح موسى بن جعفر - وعدد سلسلة آبائه - ثم قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: سمعت جبرئيل يقول: قال الله جل جلاله: اني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدوني، من جاء منكم بشهادة أن لا إله إلا الله بالاخلاص دخل في حصني ومن دخل في حصني أمن من عذابي» ^(٥).

وعن إسحاق بن راهويه، أنه قال: فلما مرت الراحلة نادانا « بشروطها وأنا من شروطها» ^(٦).

(١) محمد بن رافع، ابن أبي زيد، واسمه سابور، الإمام الحافظ الحجة القدوة، بغية الاعلام، أبو عبد الله القشيري مولاهم النيسابورين ولد سنة تئف وسبعين ومئة في أيام الإمام مالك، ورحل سنة نيف وتسعين. سير أعلام النبلاء: ١٢: ٢١٤ / ٧٤.

(٢) كذا في عيون أخبار الرضا عليه السلام، ولعله أحمد بن حرب بن فيروز، شيخ نيسابور، أبو عبد الله النيسابوري، كان من كبار الفقهاء والعباد، توفي سنة ٢٣٤ هـ - وقد قارب الستين. راجع: سير أعلام النبلاء ١١: ٣٢ / ١٤.

(٣) هو يحيى بن يحيى بن بكر، شيخ الإسلام، وعالم خراسان، أبو زكريا المنقري النيسابوري الحافظ المتوفي سنة ٢٢٦ هـ. سير أعلام النبلاء ١٠: ٥١٢ / ١٦٧.

(٤) هو الإمام الكبير، شيخ المشرق، سيد الحفاظ، أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الخنظلي المروزي، نزيل نيسابور، مولده ١٦١ هـ -، توفي سنة ٢٣٨ هـ. سير أعلام النبلاء ١١: ٣٥٨ / ٧٩.

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١٤٣، ح ١، باب (٣٧).

(٦) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ١٤٥، ح ٤، باب (٣٧).

وحدث أبو الصلت الهروي أن الإمام الرضا عليه السلام قال في نيسابور بعد أن ذكر الإسناد المتقدم عن آبائه عليهم السلام أن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان »، قال: وقال أحمد بن حنبل: لو قرأت هذه الإسناد على مجنون لبرأ من جنونه ^(١).

خامساً: مرو

تحرك الإمام من نيسابور ليتابع رحلته إلى مرو حيث المأمون يستعد لاستقباله والحفاوة به، ولما دخلها أنزله منزلاً كريماً محاطاً بكل مظاهر التقدير والاحترام. وهناك حيث استقر الإمام الرضا عليه السلام صرف معظم وقته لبث العلوم، وعقد العديد من المجالس العلمية الكبيرة التي كان يحضرها جل علماء المصمر، فعاش حياته القصيرة في مرو معلماً ناشراً للعلوم، حيث سنرى لاحقاً أنه قد انصرف عن دوره السياسي كولي للعهد ومارس دوره العلمي من موقعه الديني الرفيع.

وهناك حظي العديد من أهل العلم ورواة الحديث بلقائه والنقل عنه والاستماع إلى أحاديثه، فعرفه من لم يكن يعرفه، وذاع صيته أكثر فأكثر في أصقاع البلاد، كأبرز رجال العلم وأوسعهم معرفة وأكثرهم جلاله وشرفاً ..
قال أبو الصلت عبد السلام الهروي، وهو من أعلام عصره: ما رأيت أعلم من علي بن موسى الرضا عليه السلام ولا رآه عالم إلا شهد له بمثل

(١) أنظر: كشف الغمة ٣: ١٠٠.

شهادتي، ولقد جمع المأمون في مجلس له عددا من علماء الأديان وفقهاء الشريعة والمتكلمين فغلبهم عن آخرهم، حتى ما بقي منهم أحد إلا أقر له بالفضل وأقرّ على نفسه بالقصور ..^(١) فقد قام هؤلاء العلماء بالتفتيش عن أعقد المسائل وأكثرها صعوبة وعمقا في جميع أنواع العلوم، وعرضوها على الإمام فأجاب عنها جواب العالم الخبير المتمرس فيها، يقول الرواة: أنه سئل عن أكثر من عشرين ألف مسألة في نوب مختلفة عاد فيها بلاط المأمون إلى مركز علمي، وخرجت الوفود العلمية وهي مليئة بالاعجاب والاكبار بمواهب الإمام وعبقريته، وأخذت تذيع على الناس ما يملكه الامام من طاقات هائلة من العلم والفضل، كما ذهب معظمهم إلى القول بإمامته^(٢).

هذه الجولة العلمية وما رافقها من جهد علمي كبير تثبت - بما لا يدع مجالاً للشك - بأن امامنا قد اتبع أسلوبا جديدا ومبتكرا في بث علوم آل البيت عليهم السلام وهو ما أطلقنا عليه تعبير «المدرسة السّيارة»، ويبدو أن الظروف السياسية هي التي حملته على اتباع هذا الأسلوب.

روى الصدوق بسنده عن الريّان بن الصلت وكان من رجال الحسن ابن سهل: أن مسير الإمام الرضا عليه السلام كان عن طريق البصرة والأهواز وفارس، قال: .. فكتب إليه المأمون لا تأخذه على طريق الكوفة وقم، فحمل على طريق البصرة والأهواز وفارس حتى وافى مرو^(٣). ومنذ أن

(١) اعلام الوری ٢: ٦٤، الفصل الرابع.

(٢) حياة الإمام علي الرضا عليه السلام / القرشي: ١٠٢.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٦١ ح ٢١، باب (٤٠).

غادر الإمام الرضا عليه السلام بيت الله الحرام متوجهاً إلى خراسان قوبل بمنتهى الحفاوة والتكريم والاجلال في كل بلد أو حي يمر به، وكان الناس يسألونه عن أحكام دينهم وهو يجيب عنها.

لقد أراد المأمون أن يكون سفر الإمام عليه السلام غامضاً عبر الطريق الصحراوي القاحل، ولكن امامنا استغل هذه الفرصة المناسبة لنشر علوم مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وإدامة عطائها العلمي والمعرفي.

المبحث الثاني: الإمام الرضا في ظل أبيه عليه السلام

لازم الإمام أباه عليه السلام ملازمة الظل منذ نعومة أظفاره إلى أن فرَّ الأجل بينهما، وكان الأب العظيم يصب في اذن ولده الأغر أعذب الألفاظ وأرق المعاني، ويغذيه من علوم آبائه وأجداده عليهم السلام ويشيد دائماً بفضله ويقدمه على جميع ولده، ومن مصاديق ذلك، مقاله الإمام الكاظم عليه السلام لسليمان بن حفص المروزي الذي سأل الكاظم عليه السلام عن الحجّة على الناس بعده، قال: « يا سليمان، إن علياً ابني ووصيي والحجّة على الناس بعدي، وهو أفضل ولدي » ^(١).

وروى الصدوق عن نعيم القابوسي، عن أبي الحسن موسى عليه السلام أنه قال: « ابني علي أكبر ولدي وآثرهم عندي، وأحبهم إليّ .. » ^(٢).

تكلم الإمام الرضا عليه السلام ذات يوم بين يدي أبيه عليه السلام فأجاد وأحسن أيّما

(١) دلائل الإمامة: ٣٩٦.

(٢) الارشاد ٢: ٢٤٩.

إحادة وإحسان، فتهلّل وجه أبيه عليه السلام فرحا، قائلا: « يا بني الحمد لله الذي جعلك خلفا من الآباء، وسرورا من الأبناء، وعوضا عن الأصدقاء » ^(١).

كان يجلسه في حجره يقبله ويمص لسانه، ويقعده على عاتقه، يسبغ عليه عطفه وحنانه، ويرعاه من دون إخوته رعاية خاصة فقد كان يعلم بأنه سوف يخلفه للامامة من بعده، وكان يهمس في أذنه عبارات الود والثناء، ويقول له: « ما أطيب ريحك، وأطهر خلقك، وأبين فضلك! » ^(٢).

ولكن حياة الرضا عليه السلام بجنب أبيه الهادئة والهائنة، قد عكرت صفوها دسائس بلاط بني العباس، الذين يتربصون بالعلويين الدوائر، فقد (بقي الامام الرضا عليه السلام مع أبيه نحوًا من ثلاثين عاما أو تزيد، شاهد فيها ضروب المحن والبلايا التي أحاطت بأبيه الإمام موسى بن جعفر الذي كان وجوده، رغم وقوفه موقف المسالم للحكم بعيدا عن مواطن المجابهة معه، يثير قلق الحكام ويقض مضاجعهم، فلقد كان المنصور يتحراه ويراقب جميع تحركاته وتصرفاته حتى اضطره إلى أن يحتجب عن شيعته وحبّص أصحابه، وبعث إليه المهدي العباسي يستدعيه لبغداد، وألقاه في سجنه لمدة من الزمن .. وبوفاة المهدي والهادي الذي لم تطل أيامه ارتقى الرشيد سدة الخلافة وبدأت بخلافته بوادر المأساة التي حلّت بالبيت العلوي الذي كان يتزعمه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وكان له منها القسط الأوفر، فقد اعتقله وضيق عليه في ظلمات سجنونه المرعبة مدة أحد عشر

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٣٥، ح ٤ باب (٣٥).

(٢) أنظر: عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٤٠، ح ٢٨، باب (٤).

عاما كان ينقله فيها من حبس لحبس^(١) حتى لفظ آخر أنفاسه مسموما وهو في الحبس. هذه الأحداث المؤسفة حركت سحابة قائمة من الحزن داخل نفس الإمام الرضا عليه السلام. ومما يعظم الخطب أنه كان مغلوبا على أمره ليس له القدرة على الثأر أو الانتقام ممن عكروا صفو حياته، لقد (كتب له أن يعيش مأساة أبيه من بدايتها وحتى نهايتها، دون أن يملك القدرة على التخفيف من حدتها، حيث لا سبيل له إلى ذلك، وربما كان ينتظر المصير نفسه من عصابة الحكم)^(٢). كان يستشعر الخطر المحدق به، فقد كانت السلطة الحاكمة تضرب طوقا حديديا حوله، ترصد ردود فعله على اعتقال أبيه، فوجد أن الطريق الأسلم هو الاحتكام إلى السلم، منصرفا إلى نشر العلم والمعرفة.

المبحث الثالث: نسله الشريف

هناك اختلاف في كتب الأنساب والتراجم في عدد أولاده، وتحديد أسمائهم، ففي (عمدة الطالب) و (تهذيب الأنساب) نجد أن العقب من علي الرضا بن موسى الكاظم عليه السلام في رجل واحد هو أبو جعفر محمد بن علي^(٣)، بينما نجد صاحب (المجدي في أنساب الطالبين) يخصص عقبه في

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر / هاشم معروف الحسني، القسم الثاني: ٣٤٢ - ٣٤٣.

(٢) الإمام الرضا عليه السلام / محمد جواد فضل الله، تاريخ ودراسة: ١٠.

(٣) أنظر: عمدة الطالب / ابن عنبّة، وتهذيب الأنساب / العبيدي: ١٤٨.

ثلاثة، هم: موسى ومحمد وفاطمة - ويضيف: أما محمد هو أبو جعفر الثاني إمام الشيعة الاثني عشرية، لقبه النبي ﷺ مات أبوه وله أربع سنين^(١). وفي كتاب (لباب الأنساب) أن للرضا ولدا اسمه علي بن علي الرضا^(٢).

ويذهب صاحب (الصواعق المحرقة) إلى أن الرضا ﷺ: توفي عن خمسة ذكور وبنت، أجلهم محمد الجواد لكنه لم تطل حياته^(٣). ويذهب الصفدي والذهبي إلى هذا الرأي، ويسرد الصفدي وابن الصباغ أسماءهم، وهم: محمد، الحسن، جعفر، ابراهيم، الحسين، عائشة^(٤).

وعن (العُدُد القوية): كان له ولدان محمد وموسى لم يترك غيرهما^(٥). وقال الشيخ المفيد: مضى الرضا ﷺ ولم يترك ولدا نعلمه إلا ابنه الإمام بعده أبا جعفر محمد بن علي ﷺ^(٦).

والذي يترجح في النظر ما ذكره المفيد، وبه جزم ابن شهر آشوب^(٧)، والطبرسي^(٨)، وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري^(٩) فالمعلوم لدينا من ابنائه هو الإمام محمد الجواد، واما غيره فلم يثبت، ويؤيد هذا الرأي

(١) المجدي في أنساب الطالبين / علي بن محمد العلوي: ١٢٨.

(٢) لباب الأنساب والألقاب والأعقاب / ابن فندق ٢: ٤٤١.

(٣) الصواعق المحرقة / الهيتمي: ٣١١.

(٤) الوافي بالوفيات / الصفدي ٢٢: ٢٤٨، ترجمة رقم (١٨). سير أعلام النبلاء ٩: ٣٩٣، الترجمة ١٢٥،

وأیضا: الفصول المهمة: ٢٦٠.

(٥) في رحاب أئمة أهل البيت ﷺ / السيد محسن الأمين ٤: ٢٦٤.

(٦) الإرشاد ٢: ٢٧١.

(٧) المناقب ٤: ٣٩٧.

(٨) اعلام الوری ٢: ٨٦.

(٩) دلائل الإمامة: ٣٥٩.

الرواية الواردة عن حنان بن سدير، قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: أيكون إمام ليس له عقب؟ فقال أبو الحسن: «أما أنه لا يولد لي إلا واحداً، ولكن الله منشىء منه ذرية كثيرة». قال أبو خدّاش: سمعت هذا الحديث منذ ثلاثين سنة^(١).
والله أعلم بواقع الأمر.

* * *

(١) كشف الغمة ٣: ٩٥.

الفصل الثالث

الإمام الرضا عليه السلام بعد تولي -يه الإمامة

تعتقد مدرسة أهل البيت عليهم السلام أن الإمامة أمر الهي وجعل رباني لا رأي لأحد فيها من الأمة. وبأن الإمام يجب أن يكون منصوباً عليه من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم. إذ الإمامة هي امتداد للنبوّة، والدليل الذي يوجب إرسال الرسل وبعث الأنبياء هو نفسه أيضاً يوجب نصب الإمام. وهي أيضاً لطف من الله كالنبوّة فلا بد من أن يكون في كل عصر إمام هاد يخلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم في وظائفه في هداية البشر.

ولو تعمقنا في النظر قليلاً لوجدنا أن فكرة النص تقوم على دليلين:

الأول: عقلي: ويستدل به على استحالة أن يترك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الأمة فوضى من بعده، وهو الحريص عليها، وقد بين لها صغائر الأمور، فكيف يترك مسألة الإمامة أو القيادة دون تعيين؟! علماً بأن الخليفة الأول والثاني قد عينا أشخاصاً قبيل وفاتهم لأمر الخلافة. الثاني: شرعي: حيث استدل بالكثير من الآيات والروايات على ثبوت الإمامة في أمير المؤمنين علي عليه السلام وأحد عشر من ولده من بعده.

وعرض جميع الأدلة العقلية والنقلية على إمامة أهل البيت عليهم السلام بحث طويل وعريض لاجمال هنا لاستقصائه، ومن شاء فليراجع كتاب (الشافي)

في الإمامة) للسيد المرتضى عليه السلام، إذ يعد هذا الكتاب بشهادة أعلام الطائفة فريداً في بابه، بل هو كما يقول الشيخ محمد جواد مغنية في تقرّظه: إنه صورة صادقة لمعارف المرتضى ومقدرته، أو لمعارف علماء الإمامية وعلومهم في زمنه - على الأصح - عالج المرتضى مسألة الإمامة من جميع جهاتها كمبدأ ديني واجتماعي وسياسي، وأثبت بدليل العقل والنقل الصحيح أنها ضرورة دينية واجتماعية، وأن علياً عليه السلام هو الخليفة الحق المنصوص عليه بعد الرسول، وأنه من عارض وعاند فقد عارض الحق والصالح العام. ذكر الشريف جميع الشبهات التي قيلت أو يمكن أن تُقال حول الإمامة وأبطلها بمنطق العقل والحجج الدامغة ^(١).

لقد شغل موضوع الإمامة حيناً كبيراً من فكر أئمة أهل البيت عليهم السلام لكونها حجر الزاوية في الفكر الإسلامي عامة والشيعي على وجه الخصوص، إضافة إلى كثرة اختلاف الناس حولها، وحاجتهم الماسة إلى القول الفصل فيها، بغية الخروج من مرحلة الحيرة والتساؤل. وقد حظيت هذه المسألة بأهمية استثنائية عند إمامنا الرضا عليه السلام فأجاب عن الاشكالات والشبهات المطروحة إجابة شافية ووافية، نجدها في الرواية التالية: عن القاسم بن مسلم، عن أخيه عبد العزيز بن مسلم، كنا في أيام علي بن موسى الرضا عليه السلام بمرو، فاجتمعنا في مسجد جامعها في يوم الجمعة في بدء مقدمنا، فأدار الناس أمر الإمامة وذكرنا كثرة اختلاف الناس فيها فدخلت على سيدي ومولاي الرضا عليه السلام، فأعلمته ما خاض الناس فيه، فتبسم عليه السلام ثم قال: « يا عبد العزيز، جهل القوم وخذعوا عن

(١) مقدمة تحقيق كتاب الشافي ١: ١٩ - ٢٠.

أديانهم، ان الله تبارك وتعالى لم يقبض نبيه ﷺ حتى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تفصيل كل شيء بين فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج إليه كمالاً فقال عز وجل: (مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)^(١) وأنزل في حجة الوداع وفي آخر عمره ﷺ: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا)^(٢) وأمر الإمامة في تمام الدين، ولم يمض ﷺ حتى بين لأمته معالم دينهم، وأوضح لهم سبيلهم وتركهم على قصد الحق وأقام لهم علياً عليه السلام علماً وإماماً، وما ترك شيئاً تحتاج إليه الأمة إلا بينه، فمن زعم أن الله عز وجل لم يكمل دينه، فقد رد كتاب الله عز وجل، ومن رد كتاب الله تعالى فهو كافر، هل يعرفون قدر الإمامة ومحلها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم؟ ان الإمامة أجل قدراً وأعظم شأناً وأعلى مكاناً وأمنع جانباً وأبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم، أو ينالونها بأرائهم أو يقيموا إماماً باختيارهم - إلى أن يقول - فقلدها علياً عليه السلام بأمر الله عز وجل على رسم ما فرضها الله عز وجل، فصارت في ذريته الأصفياء الذين أتاهم الله العلم والإيمان بقوله عز وجل: (وَقَالَ الَّذِينَ أُتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ)^(٣) فهي في ولد علي عليه السلام خاصة إلى يوم القيامة - إلى أن قال - ان الإمامة هي منزلة الأنبياء وإرث الأوصياء، ان الإمامة خلافة الله عز وجل وخلافة الرسول ومقام أمير المؤمنين وميراث الحسن والحسين عليهما السلام ، ان الإمامة زمام الدين ونظام

(١) سورة الأنعام: ٦ / ٣٨.

(٢) سورة المائدة: ٥ / ٣.

(٣) سورة الروم: ٣٠ / ٥٦.

المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين، ان الإمام قمر الإسلام النامي وفرعه السامي». ثم يورد تشبيهات بليغة وبديعة، فيقول: «الإمام كالشمس الطالعة للعالم وهي بالافق بحيث لاتنالها الأيدي والابصار، الإمام البدر المنير، والسراج الزاهر، والنور الساطع، والنجم الهادي في غياهب الدجى والبيد القفار ولجج البحار، الإمام الماء العذب على الظمأ، والدال على الهدى والمنجي من الردى».

ثم يضيف قائلاً: «فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام ويمكنه اختياره؟ هيئات هيئات.. فكيف لهم باختيار الإمام؟! والإمام عالم لا يجهل، وراع لا ينكل، معدن القدس والطهارة والنسك والزهادة والعلم والعبادة، مخصوص بدعوة الرسول وهو نسل المطهرة البتول، لا مغمز فيه في نسب، ولايدانيه ذو حسب، فالنسب من قريش والذروة من هاشم، والعتره من آل الرسول ﷺ» (١).

لقد حاول الإمام الرضا عليه السلام أن يعيد الوعي الإسلامي الصحيح بشأن الإمامة سيّما بعد تفريط القسم الأعظم من الأمة بها، بحيث أنه عليه السلام لم يترك فرصة إلا واستغلها في بيان ضرورتها وأدلتها وكشف أبعادها، والطريق اللاحب في انعقادها، ولعل أوضح مثل على ذلك، ما جاء عن الحسن بن جهم، قال: حضرت مجلس المأمون يوما وعنده علي بن موسى الرضا عليه السلام وقد اجتمع الفقهاء وأهل الكلام من الفرق المختلفة فسأله بعضهم، فقال له: يا ابن رسول الله بأي شيء تصح الإمامة لمدعيها؟ قال: «بالنص والدليل»

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٥، ح ١، باب (٢٠).

قال له: فدلالة الإمام فيما هي؟ قال: « في العلم واستجابة الدعوة .. »^(١).
ومن الواضح أن الإمام الرضا عليه السلام قد تصدى للإمامة علناً، وقال بإمامة نفسه وأذعنت
له قاعدته، وشهد بذلك خصمه. الأمر الذي يستوجب استجلاء هذه الأمور في ثلاثة
مباحث، وهي:

المبحث الأول: النص على الإمام الرضا عليه السلام بالإمامة

أولاً: من النصوص الدالة على إمامته عليه السلام:

هناك روايات عديدة من طرق الشيعة الإمامية تؤكد على سلسلة أسماء السلالة الطاهرة
للأئمة عليهم السلام واحداً بعد الآخر، ويأتي ذكر الإمام الرضا عليه السلام في الترتيب الثامن: أخرج
الشيخ الصدوق بسند صحيح عن الثقة عبد الله بن جندب عن موسى بن جعفر عليه السلام ما
ينبغي أن يقال في سجدة الشكر وهذا نصّه: « اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك وأنبياءك
ورسلك وجميع خلقك أنك أنت الله ربي والإسلام سلام ديني ومحمداً نبياً وعلياً والحسن
والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلي بن
موسى ومحمد بن علي وعلي بن محمد والحسن بن علي والحجة بن الحسن بن علي أئمتي بهم
أتولى ومن أعدائهم أتبرأ .. »^(٢).

ويمكن الاستشهاد أيضاً بحديث اللوح المتواتر المروي من طرق

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢١٦، ح ١، باب (٤٦).

(٢) من لا يحضره الفقيه / الشيخ الصدوق ١: ٢١٧، باب (٤٧).

جمّة، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، وكذلك عن الإمام السجاد والباقر والصادق عليه السلام، نكتفي منها برواية أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: « قال أبي عليه السلام لجابر بن عبد الله الأنصاري: إن لي إليك حاجة، فمتى يخف عليك أن أخلو بك، فأسألك عنها؟ قال له جابر: في أي الأوقات شئت، فخلا به أبي عليه السلام فقال له: يا جابر أخبرني عن اللوح الذي رأيته في يد أمي فاطمة بنت رسول الله ﷺ وما أخبرتك به أمي أنه في ذلك اللوح مكتوب.

قال جابر: أشهد بالله، أني دخلت على أمك فاطمة في حياة رسول الله ﷺ لأهنتها بولادة الحسين عليه السلام فوجدت في يدها لوحا أخضر ظننت أنه زُمرّ، ورأيت فيه كتابا أبيض شبه نور الشمس، فقلت لها: بأبي أنت وأمي يا بنت رسول الله ﷺ وسلم ما هذا اللوح؟ فقالت: هذا اللوح أهداه الله عزّ وجلّ إلى رسوله ﷺ فيه اسم أبي واسم بعلي واسم ابني وأسماء الأوصياء من ولدي، فأعطانيه أبي عليه السلام ليسرني بذلك، قال جابر: فأعطتني أمك فاطمة، فقرأته، وانتسخته فقال أبي عليه السلام: فهل لك يا جابر أن تعرضه علي، قال نعم، فمشى معه أبي عليه السلام حتى انتهى إلى منزل جابر، فأخرج أبي عليه السلام صحيفة من رق، قال جابر: فأشهد بالله أني هكذا رأيته في اللوح مكتوبا: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله العزيز الحكيم محمد نوره وسفيره وحجابه ودليله نزل به الروح الأمين من عند رب العالمين، عظّم يا محمد أسمائي واشكر نعمائي، ولا تجحد آلائي ... إني لم أبعث نبيا فأكملت أيامه وانقضت مدّته، ألا جعلت له وصيّا، وأني فضلتك على الأنبياء وفضلت وصيك على الأوصياء، وأكرمتك بشبيلك بعده وبسبيلك

الحسن والحسين فجعلت حسنا معدن علمي بعد انقضاء مائة أبيه، وجعلت حسيننا خازن وحيي وأكرمه بالشهادة، وختمت له بالسعادة، وختمت له بالسعادة، وهو أفضل من استشهد، وأرفع الشهداء درجة عندي، وجعلت كلمتي التامة معه والحجة البالغة عنده، بعترته أثيب وأعاقب: أولهم علي سيد العابدين وزين أوليائي الميامين، وابنه شبيه جدّه المحمود محمد الباقر لعلمي والمعدن لحكمي، سيهلك المرتابون في جعفر الراد عليه كالراد علي، حق القول مني لأكرمن مثوى جعفر ولاسرته في أشياعه وأنصاره وأوليائه، انتجت بعده موسى وانتجت بعده فتنة عمياء هندس لأن خيط فرضي لا ينقطع وحتي لا تحفى .. وويل للمفتزين الجاحدين عند انقضاء مدة عبدي موسى وحيي وخيري، إن المذكب بالثامن مكذب كل أوليائي، وعلي وليي وناصري، ومن أضع عليه أعباء النبوة وأمنحه بالاضطلاع، يقتله عفريت مستكبر، يدفن في المدينة التي بناها العبد الصالح إلى جنب شر خلقي، حق القول مني لاقرن عينيّه بمحمد ابنه وخليفته من بعده، فهو وارث علمي ومعدن حكمي وموضع سبيّ وحتي على خلقي .. وأختتم بالسعادة لابنه علي وليي وناصري والشاهد في خلقي، وأميني على وحيي، أخرج منه الداعي إلى سبيلي والخازن لعلمي الحسن، ثم أكمل ذلك بابنه رحمة للعالمين، عليه كمال موسى وبهاء عيسى وصبر أيوب .. أولئك أوليائي حقاً بهم أذفع كل فتنة عمياء هندس .. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون « قال عبد الرحمن بن سالم: قال أبو بصير: لو لم تسمع في دهرك إلا هذا الحديث لكفناك، فصنّه إلا عن أهله»^(١).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٤٨، ح ٢ باب (٦).

ثانياً: أساليب الإمام الكاظم عليه السلام في النص على إمامة ولده الرضا عليه السلام

ميرّ الشيعة بعد وفاة الإمام الكاظم عليه السلام بمعطف خطير. فقد كان عليه السلام يمرّ بظروف خانقة كما أسلفنا، ولذلك تمسك بالتقية وكان تحركه بمنتهى السرية، ومن ثم غيبت الطويلة في السجون، كل ذلك ساعد على انقطاعه عن قاعدته الجماهيرية، وكان الإمام الكاظم عليه السلام يدرك المقطع الزمني الحساس والعصيب الذي ستمر به إمامة ولده الرضا عليه السلام، فهناك الأجواء السياسية الملبدة بالغيوم من قبل الحكام، وهناك ذوو الاطماع من علماء السوء الذين سوف يصنعون سياجا هائلا من التعقيم والتكتم أو التشكيك بإمامة ولده، لذلك لم يأل جهدا ولم يدّخر وسعا في التبليغ لإمامة ولده الرضا عليه السلام، مرة من خلال التلميح بفضائله وكمالاته وأهليته للإمامة، ومرة أخرى من خلال التصريح بها، وتارة يتصل مع أصحابه والثقات من شيعته بصورة فردية، وتارة أخرى يجتمع مع أقربائه وأهل المدينة بصورة جماعية، وأحيانا يشير إلى إمامة ولده بصورة شفوية، وأخرى بصورة كتب أو ألواح يشرح فيها أهلية ولده لمنصب الإمامة ويضمّننها وصاياها به. وبدا لنا من خلال البحث أن الإمام الكاظم عليه السلام قد سار حسب خطة مرسومة للتعريف بالرضا عليه السلام والإشادة بمنزلته، وقد هدد وأوعد كل من يسقط تحت حوافر الاطماع أو ينساق إلى مهاوي الضياع كالواقفية.

ونحن سوف نغوص في أعماق الروايات الدالة على إمامة الرضا عليه السلام، نحاول أن ندرسها ونسبر أغوارها ونصنفها حسب الغاية التي توحيت منها.

وقد توصلنا من خلال البحث إلى أن الإمام الكاظم عليه السلام قد اتبع عدة أساليب للتعريف بإمامة ولده الرضا عليه السلام، هي:

أولاً: أسلوب التلميح الشفوي:

يجد الباحث في هذا الصدد عدداً من الروايات لم تصرح بإمامة الرضا عليه السلام، ولكنها تلمح إلى ذلك من خلال عبارات دقيقة موحية، ويبدو أنها قيلت بظرف خاص لا يساعد على التصريح، كما سنرى في العناوين التالية:

١ - السيادة وانتحال الكنية:

نجد روايات يشيد فيها الكاظم عليه السلام بولده الرضا عليه السلام بأنه سيد ولده، أو أنه نخله كنيته، فهكذا عبارات توحى - بدون شك - ضمناً إلى استحقاقه للإمامة، لاسيما أن الكناية عند ذوي الأبواب أبلغ من التصريح، ويبدو أن أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام، كهشام بن الحكم، ممن يغنيهم التلميح عن التصريح قد أدركوا جيداً ما وراء هذه العبارات من دلالات ..

عن الحسين بن نعيم الصحاف، قال: كنت أنا وهشام بن الحكم وعلي بن يقطين ببغداد فقال علي بن يقطين: كنت عند العبد الصالح موسى بن جعفر عليه السلام جالسا، فدخل عليه ابنه الرضا عليه السلام فقال: «يا علي، هذا سيد ولدي، وقد نخلته كنيتي»، فضرب هشام براحته جبهته! ثم قال: ويحك! كيف قلت؟ فقال علي بن يقطين: سمعت واللّه منه كما قلت لك، فقال هشام: أخبرك واللّه أن الامر فيه من بعده ^(١).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣١، ح ٣، باب (٤).

وقد استخدم الإمام الكاظم عليه السلام عبارات ايجابية أخرى، منتقاة بدقة:
 عن زياد بن مروان القندي، قال: دخلت على أبي ابراهيم عليه السلام وعنده علي ابنه، فقال لي: « يا زياد، هذا كتابه كتابي، وكلامه كلامي، ورسوله رسولي، وما قال فالقول قوله »^(١).
 قال الشيخ الصدوق بعد رواية الخبر: إن زياد بن مروان القندي روى هذا الحديث ثم انكره بعد مضي موسى عليه السلام وقال بالوقف، وحبس ما كان عنده من مال موسى بن جعفر!

٢ - بيان منزلته عليه السلام:

أولى الإمام الكاظم عليه السلام عناية خاصة بولده الرضا عليه السلام وأحاطه باهتمام ملحوظ منذ نعومة أظفاره مما جعل الانظار تتجه إليه والألسن تتحدث عنه، ومن الروايات الواردة في هذا الشأن، ما أخرجه الشيخ الصدوق: عن المفضل بن عمر، قال: دخلت على أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام وعلي ابنه في حجره وهو يقبله ويمص لسانه، ويضعه على عاتقه ويضمه إليه، ويقول: « بأبي أنت وأمي، ما أطيب ريحك وأطهر خلقك وأبين فضلك! » قلت: جعلت فداك، لقد وقع في قلبي لهذا الغلام من المودة ما لم يقع لأحد إلا لك. فقال لي: « يا مفضل هو مني بمنزلة من أبي عليه السلام (ذِيئَةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَلِلَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) »^(٢).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٩، ح ٢٥، باب (٤)، أعلام الوري ٢: ٤٥.

(٢) سورة آل عمران: ٣ / ٣٤.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٨٦، ح ٢٨، باب (٤).

٣ - الوصية بدفع الحقوق له عليه السلام:

وهي قرينة أخرى على إمامته، لأن الحقوق تعطى - كما هو معروف - للإمام الشرعي لكي يصرفها في مواردها. ولانريد أن نسترسل في إيراد الامثلة على ذلك، ونكتفي بعرض الروايتين التاليتين:

الرواية الأولى: عن الحسن بن علي الخزاز، قال: خرجنا إلى مكة ومعنا علي بن أبي حمزة ومعنا مال ومتاع، فقلنا: ما هذا؟ قال: هذا للعبد الصالح عليه السلام أمرني أن أحمله إلى علي ابنه عليه السلام وقد أوصى إليه.

قال الشيخ الصدوق: إن علي بن أبي حمزة أنكر ذلك بعد وفاة موسى ابن جعفر عليه السلام وحبس المال عن الرضا عليه السلام!^(١)

الرواية الثانية: عن داود بن زرير، قال: جئت إلى أبي ابراهيم عليه السلام بمال فأخذ بعضه وترك بعضه، فقلت: أصلحك الله، لأي شيء تركته عندي؟! فقال: « إن صاحب هذا الأمر يطلبه منك ».

فلما جاء نعيه عليه السلام بعث إلي أبو الحسن عليه السلام فسألني ذلك المال، فدفعته إليه^(٢).

٤ - الإشارة إلى كون الإمام الرضا عليه السلام من الأوصياء:

وهي قرينة إيجابية قوية تضاف إلى سائر القرائن والعلامات الأخرى السابقة، يتضح لنا ذلك من متن الرواية التالية: عن نعيم القابوسي، عن

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٧، ح ٣٧، باب (٤).

(٢) المناقب / ابن شهر آشوب ٤: ٣٦٨، الكافي ١: ٢٥٠ / ١٣.

أبي الحسن موسى عليه السلام قال: « ابني علي أكبر ولدي، وآثرهم عندي، وأحبهم إلي، وهو ينظر في الجفر ولم ينظر فيه إلا نبي أو وصي نبي » ^(١).

فهنا لم يصرح الإمام الكاظم عليه السلام علنا بإمامة ولده الرضا عليه السلام ولكن ذكر «الجفر» وكون النظر فيه من اختصاص النبي أو الوصي، فهذه الجملة تعطي إيحاءة مهمة على إمامته، وخاصة بعد سبقها بذكر علامات أخرى، ككونه أكبر ولده وأحبهم إليه، وآثرهم عنده، وهي من صفات الإمام الذي يخلف أباه في الإمامة كما جاءت بهذا أحاديث صريحة كثيرة لا حصر لها.

ثانيا: أسلوب التصريح الشفوي

وهنا نجد الإمام الكاظم عليه السلام يصرح بصورة لالبس فيها بإمامة ولده، ويجدد القول الفصل حول إمامته بوضوح لا يخفى، وهذا الأسلوب تتوضح خطوطه من خلال روايات عديدة، وبعد دراستنا لها، نلاحظ:

أولا: تصريحه عليه السلام بإمامة ولده الرضا عليه السلام:

اذ نلاحظ أن الإمام الكاظم عليه السلام يغتنم كل مناسبة لكشف النقاب عن إمامة ولده الرضا عليه السلام، ويبدو أنه كان يركز على ثقات أصحابه وشيعته، من أجل تمهيد الطريق أمام إمامة ولده، حاملا على كتفه عبء إيصال هذه الأمانة الإلهية الخطيرة، ومدركا في الوقت نفسه بأن هناك من تسوّل له نفسه الخروج عن وصيته بإمامة ابنه، ففي اسناد ينتهي إلى غنام بن القاسم

(١) اعلام الوری ٢: ٤٤.

قال: قال لي منصور بن يونس بن بزرج: دخلت على أبي الحسن - يعني موسى بن جعفر عليه السلام - يوماً، فقال لي: « يا منصور، أما علمت ما أحدثت في يومي هذا؟ » قلت: لا، قال: « قد صير عليا ابني وصيي » وأشار بيده الى الرضا عليه السلام « وقد نخلته كنييتي، وهو الخلف من بعدي، فادخل عليه وهنئه بذلك، واعلم أي أمرتك بهذا » قال: فدخلت عليه فهنئته بذلك وأعلمته أنه أمرني بذلك .. ثم جحد منصور فأخذ الأموال التي كانت في يده وكسرها! (١).

ثانياً: جواب الإمام الكاظم عليه السلام على سؤال (عمن سيخلفه في الإمامة):

كان بعض الشيعة ونتيجة مباشرة لظروف التقية لم تسمع من إمامها الكاظم عليه السلام من يخلفه على الإمامة، ولم تطرق سمعها النصوص السابقة من آباءه عليهم السلام، أو سمعت بها وأحببت التأكد من شخص الإمام كما تحكيه بعض الروايات في هذا المقام، خصوصاً وإن حديث « من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » قد تواتر نقله عند الإمامية وصححت طرقة عند غيرهم، الأمر الذي يؤدي إلى السؤال من الإمام عليه السلام عن سيلي الأمر بعده ؛ لأجل قطع الظن الحاصل من السماع السابق أو عدمه، باليقين الحاصل من السماع من الإمام مباشرة، ومن هنا وجهت بعض الشخصيات أسئلة صريحة للإمام الكاظم عليه السلام حول من سيخلفه بعد وفاته، فأجابهم الإمام بصورة صريحة لا لبس فيها أن الإمام من بعده علي الرضا عليه السلام ابنه، ومن الشواهد عليه، ما جاء عن داود الرقي، قال: قلت لأبي إبراهيم

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٢، ح ٥٥، باب (٤).

- يعني موسى الكاظم عليه السلام: فذاك أبي، إني قد كبرت وخفت أن يحدث بي حدث ولا ألقاك، فأخبرني من الإمام من بعدك؟ فقال: «ابني علي عليه السلام»^(١).
ونظير هذه الرواية ما أسنده الصدوق إلى نصر بن قابوس. قال: قلت لأبي إبراهيم موسى بن جعفر عليه السلام: إني سألت أباك عليه السلام من الذي يكون بعدك؟ فأخبرني أنك أنت هو، فأخبرني من الذي يكون بعدك؟ قال: «ابني علي عليه السلام»^(٢).

٢ - توسيعه عليه السلام دائرة التصريح بإمامة ولده الرضا عليه السلام:

لم تقتصر دعوة الإمام الكاظم عليه السلام لإمامة ولده الرضا عليه السلام على اللقاءات والاتصالات الفردية التي تتم عادة تحت ستار كثيف من الكتمان والسرية، بل جهد في إعلان إمامته أمام الجموع أو الملاء العام، لاسيما وأنه قد أدرك أن حصرها في نطاق ضيق قد لا يحقق النتيجة المرجوة، فمن المحتمل أن تكون عرضة للتشكيك أو الإنكار، وقد تعطي مبررا لتصل أهل الأهواء وملتمسي الأعذار وأصحاب المطامع بالأموال.

من أجل ذلك أخذ الإمام الكاظم عليه السلام يجمع في بداية الأمر من يخصه بالقرابة القريبة من ولد علي وفاطمة عليهما السلام: عن حيدر بن أيوب، قال: كُنَّا بالمدينة في موضع يعرف بالقبا، فيه محمد بن زيد بن علي، فجاء بعد الوقت الذي كان يجيئنا فيه، فقلنا له: جعلنا الله فداك،

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٣، ح ٨، باب (٤).

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٤٠، ح ٢٦، باب (٤).

ما حبسك؟ قال: دعانا أبو ابراهيم عليه السلام اليوم سبعة عشر رجلا من ولد علي وفاطمة عليهما السلام ، فأشهدنا لعلي ابنه بالوصية والوكالة في حياته وبعد موته، وأن أمره جائز عليه وله، ثم قال محمد بن زيد: واللّه يا حيدر لقد عقد له الإمامة اليوم وليقولن الشيعة به من بعده، قال: حيدر، قلت: بل يبقيه الله، وأي شيء هذا؟ قال: يا حيدر، إذا أوصى إليه فقد عقد له الإمامة ^(١).

ومن ثم وسع نطاق الوصية إلى دائرة القرابة الأبعد كولد جعفر بن أبي طالب من الرجال والنساء، فمن عبد الله بن الحارث وأمه من ولد جعفر بن أبي طالب، قال: بعث إلينا أبو ابراهيم عليه السلام فجمعنا ثم قال: « أتدرون لم جمعتمكم؟ » قلنا: لا، قال: « اشهدوا أن عليا ابني هذا وصيّي، والقيّم بأمري، وخليفتي من بعدي، من كان له عندي دين فليأخذه من ابني هذا، ومن كانت له عندي عدة فليستنجزها منه، ومن لم يكن له بد من لقائي فلا يلقيني إلا بكتابه » ^(٢).

ويبدو من الرواية التالية أنه قد وسع من نطاق الدعوة لإمامة ولده الرضا عليه السلام ، بحيث شملت المدينة بصورة عامة، وبذلك انتقل إلى مدار جديد من أجل إسهاد أكبر عدد ممكن من الأفراد على استحقاق ابنه للإمامة، ليقطع الطريق على كل الأعذار، ويزيل جميع الشكوك التي تساور الأذهان المريضة في هذا الشأن: عن حسين بن بشير، قال: أقام لنا أبو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام ابنه عليا عليه السلام كما أقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا عليه السلام يوم

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٧، ح ١٦، باب (١).

(٢) اعلام الوری ٢: ٤٥، الكافي ١: ٢٤٩ / ٧، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٦، ح ١٤، باب (٤).

غدير خم، فقال: « يا أهل المدينة » أو قال: « يا أهل المسجد، هذا وصيي من بعدي »^(١).

ثالثاً: أسلوب الكتابة

حشد الإمام موسى الكاظم عليه السلام كل الحجج والادلة على إمامة ولده الرضا عليه السلام من بعده، ولم يقتصر على عرضها في اللقاءات الفردية والجماعية التي تكون عادة بصورة شفوية، من خلال كلامه المباشر مع الناس أفراداً أو جماعات، حيث يختار عبارات منتقاة بعناية حسب ما يسمح به الظرف السياسي السائد، إذ يشير تلميحاً أو تصريحاً إلى إمامة الرضا عليه السلام، ويظهر أنه لم يكتف بالأسلوب الشفوي كوسيلة اعلامية سائدة بل أردفه بأسلوب تحريري، من خلال كتابة اللوح والكتب، حتى تكون الحججة أبلغ. ولا يخفى بان الكلام المكتوب يكون أكثر وقعاً وتأثيراً في النفوس من الكلام الشفوي الذي يكون - أحياناً - عرضة للتأويل والتزوير. يتضح لنا هذا الأسلوب من خلال الروايتين التاليتين:

الرواية الأولى: عن عبد الرحمن بن الحجاج، قال: أوصى أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام إلى ابنه علي عليه السلام، وكتب له كتاباً أشهد فيه ستين رجلاً من وجوه أهل المدينة^(٢).
الرواية الثانية: عن الحسين بن المختار، قال: لما مر بنا أبو الحسن عليه السلام بالبصرة خرجت إلينا منه «ألواح» مكتوب فيها: « عهدي إلى أكبر

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٧، ح ١٧، باب (٤).

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٧، ح ١٧، باب (٤).

ولدي» (١). ومعلوم أن الإمام الرضا عليه السلام أكبر ولد الإمام الكاظم عليه السلام.

أسلوب الوصية:

جاء الإمام الكاظم عليه السلام في أسلوب المتبوع عند الأئمة عليهم السلام في الوصية لأولادهم من بعدهم، ويبدو أن الإمام الكاظم عليه السلام في وصيته لولده الرضا عليه السلام كان يخشى عليه من حسد إخوته ومنافستهم إياه، أو كان يخشى عليه من السلطات الحاكمة التي ترصد بدقة من يخلفه في أمره، لذلك كانت وصيته له اتخذت أسلوبين:

الأسلوب العام:

عندما أوصى لولده الرضا عليه السلام في الظاهر، ولأجل التمويه أشرك معه بنيه، حتى لا يتحسسوا منه، ولا تكشف السلطة من يخلفه.

الأسلوب الخاص:

فقد أوصى الإمام الكاظم عليه السلام للرضا عليه السلام خاصة، وأفرد بالوصية وحده، يظهر كل من الشكلين في الرواية التالية ذات الدلالة:

عن يزيد بن سليط قال: لقيت أبا إبراهيم عليه السلام ونحن نريد العمرة في بعض الطريق... قال: «أخبرك يا أبا عمارة، اني خرجت من منزلي فأوصيت إلى ابني فلان وأشركت معه بني في الظاهر، وأوصيته في الباطن، وأفردته وحده، ولو كان الأمر إلي لجعلته في القاسم لحبي إياه ورأفتي عليه، ولكن ذاك إلى الله يجعله حيث يشاء».

عند التمعن في هذه الرواية نكتشف أن السبب في انتخاب الإمام

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٩، ح ٢٤، باب (٤)، وفي اعلام الورى ٢: ٤٦، الفصل الثاني: أن

الالواح خرجت وهو في الحبس.

الرضا عليه السلام للإمامة ليس هو الحب فحسب، والا فقد كان الكاظم عليه السلام - علي حد قوله الشريف - يحب ولده «القاسم» ويرأف به، وانما الإمامة جعل إلهي، ينص الله تعالى علي من يرتضيه لدينه، ويكون الاصلح من بين خلقه. ومن هنا نجد أن الإمام الكاظم عليه السلام عند قرب أجله أوصى صريحا بولده الرضا عليه السلام، وبين أنه يجمع بين خصائص أو سمات إمامين يشاركونه في الاسم، قال الإمام الكاظم: «إني وأُخْبَدُ هذه السنّة، والأمر إلى ابني علي سمي علي وعلي، فأبّا علي الأول فعلي بن أبي طالب عليه السلام وأما علي الآخر فعلي بن الحسين عليه السلام، أعطي فهم الأول وحكمته وبصره وودّه ودينه ومحتته، ومحنة الآخر وصبره علي ما يكره، وليس له أن يتكلم إلا بعد موت هارون بأربع سنين» ^(١).

خامسا: أسلوب الترغيب والترهيب

لقد استخدم الإمام الكاظم عليه السلام هذا الأسلوب في تثبيت إمامة ولده من بعده، لاسيما وأن النفس البشرية تسير على خطى الخوف والرجاء، فمن جانب حجب لشيعته طاعته، وافصح عن الثواب الجزيل الذي ينتظر من أقر بإمامته:
عن المفضل بن عمر، قال: دخلت علي أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام وعلي ابنه في حجره .. قال: قلت هو صاحب هذا الأمر من بعدك؟ قال: «نعم، من أطاعه رشد، ومن عصاه كفر» ^(٢).

(١) اعلام الوری ٢: ٥٠.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٤٠، ح ٢٨، باب (٤).

ومن جانب آخر نجد التهديد والوعيد لمن جحد إمامته وظلم حقه: عن محمد بن سنان، قال: دخلت على أبي الحسن عليه السلام قبل أن يحمل إلى العراق بسنة وعلي ابنه عليه السلام بين يديه ... قال: « من ظلم ابني هذا حقه وجحد إمامته من بعدي، كان كمن ظلم علي بن أبي طالب عليه السلام حقه، وجحد إمامته من بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ». فعلمت أنه قد نعى إلي نفسه، ودل على ابنه ^(١).

المبحث الثاني: بيان الإمام الرضا عليه السلام لحقيقة الإمامة

كنا قد أشرنا إلى الجهد المتعدد الجوانب الذي بذله الإمام الكاظم عليه السلام من أجل التعريف بإمامة الرضا عليه السلام ومهز الألقعة التي يختفي وراءها أصحاب المطامع من خلال إيراد ما يكفي في توضيح إمامة إمامنا الرضا عليه السلام.
وهنا يهمننا الإشارة إلى موقف الإمام الرضا عليه السلام من الإمامة بصورة عامة، بعد أن انتهت إليه أسرار الإمامة ومفاتيح كنوزها. وإذا أمعنا النظر في الآثار الواردة عنه عليه السلام في خصوص الإمامة نجده عليه السلام، قد تناول معظم المفردات التي تحتاجها الأمة في معرفة حقيقة الإمامة والإمام، ومن هذا القبيل بيانه عليه السلام للعلامات التي يُعرف بها الإمام.
عن علي بن الحسن بن علي بن فضال، عن أبيه عن أبي الحسن علي ابن موسى الرضا عليه السلام، قال: « للإمام علامات، يكون أعلم الناس، وأحكم الناس، وأتقى الناس، وأحلم الناس، وأشجع الناس، وأسخر الناس،

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٤٠، ح ٢٩، باب (٤).

وأعبد الناس .. «^(١).

من جانب آخر كشف لنا عن الآثار الكونية للإمامة، وأن الأرض لا تخلو من إمام هدى: عن الحسن بن علي الوشا، قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: هل تبقى الأرض بغير إمام؟ فقال: « لا » فقلت: فإننا نروي: أنها لا تبقى إلا أن يسخط الله على العباد، فقال: « لا تبقى، إذا لساخت »^(٢).

وتتبدل لنا أهمية جعل الله أولي الأمر، والأمر بطاعتهم، من الرواية التي ذكرها الفضل بن شاذان، وقال أنه سمعها من الإمام الرضا عليه السلام، وأذن لعلي بن محمد بن قتيبة النيسابوري روايتها عنه عن الرضا عليه السلام، ومن يقف طويلاً عندها يدرك عمق أغوار فكر الإمام الرضا عليه السلام، وهو فكر له السبق والريادة على علماء الاجتماع السياسي الذين انتقدوا النظرية «الفوضوية» القائلة بعدم حاجة الناس إلى الحكومة، وأكدوا على ضرورة وجود أولي الأمر لمصالح كثيرة؛ دينية واجتماعية وسياسية، وقد اقتبسنا من هذه الرواية الأسطر ذات الدلالة الآتية: « .. فإن قال قائل: فلم جعل أولي الأمر وأمر بطاعتهم؟ قيل: لعل كثيرة، منها: أن الخلق لما وقفوا على حد محدود، وأمروا أن لا يتعدوا ذلك الحد لما فيه من فسادهم .. يجعل عليهم فيه أمينا يمنعهم من التعدي والدخول فيما حظر عليهم، لأنه لو لم يكن ذلك لكان أحد لا يترك لذته ومنفعته لفساد غيره، فجعل عليهم قيما يمنعهم من الفساد، ويقيم فيهم الحدود والأحكام ».

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٢، ح ١، باب (١٩)، كشف الغمة ٣: ٨٢.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٤٦، ح ٣، باب (٢٨).

ومنها: « إنا لانجد فرقة من الفرق ولاملة من الملل بقوا وعاشوا إلا بقيم ورئيس، ولما لا بد لهم منه في أمر الدين والدنيا، فلم يجز في حكمة الحكيم أن يترك الخلق مما يعلم أنه لا بد لهم منه، ولا قوام لهم إلا به، فيقاتلون به عدوهم، ويقسمون فيئهم، ويقيم لهم جمعهم وجماعتهم، ويمنع ظالمهم من مظلومهم ».

ومنها: « أنه لو لم يجعل لهم إماما قيما أميناً حافظاً مستودعاً لدرست الملة وذهب الدين وغيرت السنن والاحكام، ولزاد فيه المبتدعون، ونقص منه الملحدون، وشبهوا ذلك على المسلمين، لأننا وجدنا الخلق منقوصين محتاجين غير كاملين، مع اختلافهم واختلاف أهوائهم وتشتت أئمتهم، فلو لم يجعل لهم قيما حافظاً لما جاء به الرسول ﷺ لفسدوا على نحو ما بينا، وغيرت الشرائع والسنن والاحكام والإيمان، وكان في ذلك فساد الخلق أجمعين »^(١).

إن هذه الرواية في الوقت الذي سبقت فيه لبيان أهمية أولي الأمر تكشف - من جانب آخر - عن فلسفة الحكومة في الإسلام وضرورة وجود القيادة في المجتمع، كما تحكي - ضمناً - عن ضرورة سيادة الدين في جميع مرافق الحياة.

وبعد، فلم يقتصر الإمام الرضا عليه السلام على تبيان الأمور النظرية والعقلية المتعلقة بموضوع الإمامة، وإنما كشف الأدلة النقلية عن القيادة الربانية التي اختارتها العناية الإلهية لقيادة البشرية، وستتطرق لها وفق العناوين الفرعية التالية:

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٠٦ - ١٠٨، ح ١، باب (٣٤).

أولاً: إخبار الإمام الرضا عليه السلام بإمامته:

على الرغم من توفر النصوص الصحيحة الصريحة بإمامة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام، وعلى الرغم من الأساليب العديدة التي استخدمها الإمام الكاظم عليه السلام في تأكيد إمامة الإمام الرضا عليه السلام من بعده، فقد وجدنا بعض ذوي المطامع والنفوس الضعيفة التي ألفت بظلال كثيفة من الشك حول إمامة الرضا عليه السلام بعد وفاة أبيه، ولكن امامنا بدد تلك الاوهام وقشع غيوم الشك، وقد نوهنا بأن هناك من يحاول حجب الحقيقة بستار من ضباب الطمع أو الحسد. حتى لكأنه يريد إخفاء الشمس الساطعة بالغربال، ومن هنا تمسكوا بحجج واهية وأقوال مكذوبة ما أنزل الله بها من سلطان نظير قولهم إن أباه عليه السلام لم يوص بإمامته^(١) أو أنه ليس له ولد، والإمامة لا تكون لمن ليس له ولد وكان زعيم هذه المقولة زعيم الغلاة، الحسين بن قياما الواسطي الذي زعم أنه روى عن الإمام الصادق عليه السلام بأن الإمام لا يكون عقيماً، وأن الرضا عليه السلام ليس له ولد!!^(٢)

وكانت هذه الاعتراضات ونظائرها كالفقاعات التي ما أن تنمو في محيطها إلا وتنفجر بأسرع ما يكون وتلاشى، سيّما وأن الإمام الرضا عليه السلام قد تولى بنفسه الشريفة الاجابة الشافية والصريحة على تساؤلات خصومه أين ما كانوا، كما أن خاصة الإمام الرضا عليه السلام وثقاته ممن عرفوا بالورع والجلالة والتقوى قد رووا النص عليه بالإمامة من أبيه عليه السلام وفي هذا

(١) دلائل الإمامة ٣٦٣: ٣١١.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٠٩ / ١٣، وإعلام الوري ٢: ٣٢٣.

الصدد يقول الشيخ المفيد: فمن روى النصَّ على الرضا عليّ عليه السلام بالإمامة من أبيه والاشارة إليه منه بذلك، من خاصّته وثقاته وأهل الورع والعلم والفقّه من شيعته: داود بن كثير الرقيّ، ومحمد بن إسحاق بن عمّار، وعلي بن يقطين، ونعيم القابوسي، والحسين بن المختار، وزياد بن مروان، والمخزومي، وداود بن سليمان، ونصر بن قابوس، وداود بن زبي، ويزيد بن سليط، ومحمد بن سنان ^(١).

ربما يؤكد ما ذكرناه قوله عليه السلام وقد سأله العباس النجاشي الأسدي: أنت صاحب هذا الأمر؟ فقال عليه السلام: « إي والله، على الجن والإنس » ^(٢).

لما كانت إمامة أهل البيت عليهم السلام هي الأعمدة الراسخة الثابتة التي يقوم عليها بناء الإسلام الشامخ، تصدى إمامنا الرضا عليه السلام لحشد كل الأدلة وإيراد كل الحجج التي تثبت أحقية آبائه عليهم السلام بالإمامة وأهليتهم لها، لا سيّما وأن مسألة الإمامة كانت مطروحة على نار ساخنة بين العلماء والعوام على حد سواء، وكنا قد أشرنا إلى رواية عبد العزيز بن مسلم عن الرضا، واقتبسنا منها مورد الحاجة في وصف الإمامة والإمام وذكر فضل الإمام ورتبته، ونعود إلى تلك الرواية في مورد بحثنا هذا، لأن الإمام الرضا عليه السلام أشار فيها إلى إمامة أهل البيت عليهم السلام، قال عبد العزيز: كنا في أيام علي بن موسى الرضا عليه السلام بمرو، فاجتمعنا في مسجد جامعها في يوم الجمعة في بدء مقدمنا فأدار الناس أمر الإمامة وذكروا كثرة اختلاف الناس فيها فدخلت على سيدي ومولاي الرضا عليه السلام، فأعلمته ما خاض الناس فيه، فتبسم عليه السلام، ثم

(١) الإرشاد: ٢٤٨.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٠ باب (٤) ص ٢١.

قال: « يا عبد العزيز جهل القوم وخذعوا عن أديانهم، إن الله تبارك وتعالى لم يقبض نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حتى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن - إلى أن يقول: - ولم يمض صلى الله عليه وآله وسلم حتى بين لأمته معالم دينهم، وأوضح لهم سبيلهم وتركهم على قصد الحق وأقام لهم عليا عليه السلام علما وإماما... فكانت له - أي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم - خاصة فقلدها صلى الله عليه وآله وسلم عليا بأمر الله عز وجل على رسم ما فرضها الله عز وجل، فصارت في ذريته الأصفياء.. فهي في ولد علي عليه السلام خاصة إلى يوم القيامة إذ لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم.. إن الإمامة خلافة الله عز وجل وخلافة الرسول ومقام أمير المؤمنين وميراث الحسن والحسين عليهما السلام » ^(١).

ومن يتمعن في استشهادات الرضا عليه السلام حول إمامة آبائه يلمس العمق العلمي الذي يجده جليا في الاستشهادات التي يسوقها من القرآن والسنة وثمة شواهد عديدة على ذلك، منها: عن عبد الله بن أبي الهذيل: سألته عن الإمامة فيمن تجب، وما علامة من تجب له الإمامة؟ فقال: « إن الدليل على ذلك والحجة على المؤمنين والقائم بأمر المسلمين والناطق بالقرآن والعالم بالأحكام أخو نبي الله وخليفته على أمته ووصيه عليهم ووليه الذي كان بمنزلة هارون من موسى، المفروض الطاعة بقول الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَطِيعُوا الرَّسُولَ هُوَ الْأَمْرُ مِنْكُمْ) ^(٢) الموصوف بقوله عز وجل: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِكِعْبُونَ) ^(٣) والمدعو إليه بالولاية المثبت له

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٥ / ٢٠.

(٢) سورة النساء: ٤ / ٥٩.

(٣) سورة المائدة: ٥ / ٥٥.

الإمامة يوم غدير خم بقول الرسول ﷺ عن الله عز وجل: أَلَسْتُ أُولَىٰ بِكُمْ مِنْكُمْ بِأَنْفُسِكُمْ قَالُوا: بَلَىٰ، قَالَ: فَمَنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ فَعَلِي مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مِنْ وَالَاهِ وَعَادِ مِنْ عَادَاهِ وَانصُرْ مِنْ نَصْرِهِ وَاخْذَلْ مِنْ خِذْلِهِ وَأَعَنْ مِنْ أَعَانِهِ، عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِمَامَ الْمُتَّقِينَ وَقَائِدَ الْغُرِّ الْمُحْتَجِلِينَ وَأَفْضَلَ الْوَصِيِّينَ وَخَيْرَ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَعْدَهُ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ، ثُمَّ الْحُسَيْنُ سِبْطَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَابْنَا خَيْرَةِ النَّسْوَانِ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، ثُمَّ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ، وَهَمَّ عَتْرَةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ الْمَعْرُوفُونَ بِالْوَصِيَّةِ وَالْإِمَامَةِ، لَا تَخْلُو الْأَرْضَ مِنْ حِجَّةٍ مِنْهُمْ فِي كُلِّ عَصْرِ وَزَمَانٍ وَفِي كُلِّ وَقْتٍ وَأَوَانٍ وَهَمَّ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى وَأَثَمَةُ الْهَدَى ..» (١).

وكانت تعقد في بلاط المأمون مناظرات ساخنة يحشد لها المأمون كبار العلماء من مختلف الملل والنحل، وكان الإمام الرضا عليه السلام بما يمتلك من أفق معرفي رحب، يرد بصدر رحب على أسئلة العلماء عامة وأسئلة المأمون بصورة خاصة.

عن الريان بن الصلت قال: حضر الرضا عليه السلام مجلس المأمون بمرو، وقد اجتمع في مجلسه جماعة من علماء أهل العراق وخراسان، فقال المأمون: أخبروني عن معنى هذه الآية: (ثُمَّ نُزِّلْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) (٢) فقالت العلماء: أراد الله عز وجل بذلك الأمة كلها، فقال

(١) الخصال ٤٧٨: ٤٦، بحار الأنوار ٣٦: ٣٩٦ باب ٤٦.

(٢) سورة فاطر: ٣٥ / ٣٢.

المؤمنون: ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال الرضا عليه السلام: « لا أقول كما قالوا، ولكني أقول: أراد الله عزَّ وجلَّ بذلك العترة الطاهرة » فقال المؤمنون: وكيف عنى العترة من دون الأمة؟ فقال له الرضا عليه السلام: « إنه لو أراد الأمة لكانت أجمعها في الجنة، لقول الله عزَّ وجلَّ: (مَنْ جَاءَكَ مِنَ النَّاسِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ وَكَلِّمْهُمْ بِكَلِمَاتٍ لَطِيهَاتٍ إِنَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (١) ثم جمعهم كلهم في الجنة فقال عزَّ وجلَّ: (سَاءَ لِبِئْسَ مَا تَحْكُمُونَ) (٢) الآية، فصارت الوراثة للعترة الطاهرة لا لغيرهم » فقال المؤمنون: من العترة الطاهرة؟

فقال الرضا عليه السلام: « الذين وصفهم الله في كتابه فقال عزَّ وجلَّ: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) (٣) وهم الذين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إني مخلَّف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ألا وإني لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، أيها الناس لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم ».

قالت العلماء: أخبرنا يا أبا الحسن عن العترة، أهم الآل أم غير الآل؟ فقال الرضا عليه السلام: « هم الآل » فقالت العلماء: فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يؤثر عنه أنه قال: « أمي آلي » وهؤلاء أصحابه يقولون بالخبر المستفاض الذي لا يمكن دفعه: آل محمد أمته؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: « أخبروني، فهل تحمُّ الصدقة على الآل؟ » فقالوا: نعم، قال: « فتحمُّ على الأمة؟ »

(١) سورة فاطر: ٣٥ / ٣٢.

(٢) سورة الكهف: ١٨ / ٣١.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٣ / ٣٣.

قالوا: لا، قال: « هذا فرق بين الآل والأمة، ويحكم أين يُذهب بكم، أضربتم عن الذكر صفحا أم أتم قوم مسرفون؟! أما علمتم أنه وقعت الوراثة والطهارة على المصطفين المهتدين دون سائرهم؟! » قالوا: ومن أين يا أبا الحسن؟ فقال: « من قول الله عزَّجل: (وَلَقَدْ رَأْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)^(١) فصارت وراثة النبوة والكتاب للمهتدين دون الفاسقين، أما علمتم أن نوحا حين سأله ربه عزَّجل: (تَقَالِبْنا بَنِيَّ اِنِّي نَجِيٌّ لِيَّ اَهْلِي لِيَّ اَمَّا لِيَّ اَهْلِي لِيَّ اَمَّا لِيَّ اَهْلِي لِيَّ اَمَّا لِيَّ اَهْلِي)^(٢) وذلك أن الله عزَّجل وعده أن ينجيه وأهله، فقال ربه عزَّجل: (يٰنُوحُ اِنَّهٗ لَيْسَ مِنْ اَهْلِكَ اِنَّهٗ عَمَلٌ غَيْرٌ لِّكَ اِنَّهٗ لَمِنَ اَهْلِ اٰلِ سَيْدِي لَيْسَ لَكَ بِهِ لِمٌ مِّنِي عَزَّجلُ اِنَّ كَوْنَنِي لِحَبِيبِ اَهْلِي)^(٣).

فقال المأمون: هل فضل الله العترة على سائر الناس؟ فقال أبو الحسن: « إن الله عزَّجل أبان فضل العترة على سائر الناس في محكم كتابه » فقال له المأمون: وأين ذلك من كتاب الله؟ فقال له الرضا ع: « في قول الله عزَّجل: (لِيَّ اَللّٰهُ اَصْبَطَقَى اٰمٍ وَّ نُوحًا وَّ اِبْرٰهِيْمَ وَّ اَلِ عِمْرٰنَ عَلٰى الْعٰلَمِيْنَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَّ اَللّٰهُ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ)^(٤) وقال عزَّجل في موضع آخر: (لَمْ يَخْسِبُوْا النَّاسَ عَلٰى مٰا اٰتٰهُمْ اَللّٰهُ مِنْ فَضْلِهٖ فَقَدَ اٰتَيْنٰا آلَ اِبْرٰهِيْمَ الْكِتٰبَ

-
- (١) سورة الحديد: ٥٧ / ٢٦ .
(٢) سورة هود: ١١ / ٤٥ .
(٣) سورة هود: ١١ / ٤٦ .
(٤) سورة آل عمران: ٣ / ٣٣ و ٣٤ .

﴿ الْحِكْمَةُ وَتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ ^(١) ثم رد المحاطبة في أثر هذه إلى سائر المؤمنين، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَطِيعُوا الرَّسُولَ هُوَ لِي الْأَمْرُ مِنْكُمْ) ^(٢) يعني الذين قرئهم بالكتاب والحكمة وحسدوا عليهما، فقله عزوجل: (لَمْ يَخْشَوْا نَاسًا عَلَيَّ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ تَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا) ^(٣) يعني الطاعة للمصطفين الطاهرين، فالملك هاهنا هو الطاعة لهم .. » ^(٤).

والرواية طويلة قد استعرض الإمام عليه السلام فيها الآيات الواردة في حق أهل البيت عليه السلام كآية التطهير والمودة والمباهلة، كما ذكرهم باخراج النبي ﷺ الناس من مسجده ما خلا العترة، وتطرق لحديث مدينة العلم، ومجيء النبي ﷺ إلى باب علي وفاطمة عليهما السلام تسعة أشهر كل يوم عند حضور كل صلاة خمس مرات، فيقول: « الصلاة رحمكم الله » وما أكرم الله أحداً من ذراري الأنبياء يمثل هذه الكرامة التي أكرم الله تعالى بها أهل البيت عليه السلام وخصصهم من دون سائر الأمة.

وكان لهذه المناظرة وقع في نفوسهم بما تميّزت به من براهين قرآنية وأحاديث نبوية لم يرق لها الشك وبذلك أدار دفة عقولهم نحو وجهة جديدة، فقال المأمون والعلماء: جزاكم الله أهل بيت نبيكم عن هذه الأمة خيراً، فما نجد الشرح والبيان فيما اشتبه علينا إلا

(١) سورة النساء: ٤ / ٥٤ .

(٢) سورة النساء: ٤ / ٥٩ .

(٣) سورة النساء: ٤ / ٥٤ .

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٠٧، ح ١، باب (٢٣).

عندكم (١).

ثانياً: إخبار الإمام الرضا عليه السلام بإمامة ابنه الجواد عليه السلام:

شغلت إمامة محمد بن علي عليه السلام حيزاً كبيراً من عناية الإمام الرضا عليه السلام، وذلك بسبب تأخر ولادته ومن ثم اضطلعه بالإمامة مع صغر سنه، الأمر الذي لم تألفه الشيعة من قبل ونتيجة لذلك تصدّى الإمام الرضا عليه السلام بنفسه لتوضيح ما قد خفي على بعضهم، وذكرهم بما حصل في تاريخ الأنبياء عليهم السلام وما جرى في الأنبياء لا يمتنع جريانه في أوصيائهم عليهم السلام. وعند استطلاع الروايات التي تتناول إمامة محمد التقي عليه السلام نجد أن والده الرضا عليه السلام كان ينوه بمكانته ومنزلته منذ صغره، روي عن يحيى الصنعاني قال: كنت عند أبي الحسن عليه السلام فجيء بابنه أبي جعفر عليه السلام وهو صغير، فقال: « هذا المولود الذي لم يولد مولود أعظم على شيعتنا بركة منه » (٢).

وأما عن مسألة صغر السن فقد أجاب عليها إمامنا الرضا عليه السلام إجابة استقفاها من أصول قرآنية صافية، عن صفوان بن يحيى قال: قلت للرضا عليه السلام قد كنا نسألك قبل أن يهب الله لك أبا جعفر فكنت تقول: يهب الله لي غلاماً، وقد وهبك الله وأقر عيوننا، فلا أرانا الله يومك، فإن كان كون فيلى من؟ فأشار بيده إلى أبي جعفر وهو قائم بين يديه، فقلت له: جعلت فداك، وهذا ابن ثلاث سنين؟! قال: « وما يضرك من ذلك، وقد قام

(١) المصدر السابق.

(٢) بحار الأنوار ٥٠: ٢٥ / ١٣.

عيسى بالحجة وهو ابن أقل من ثلاث سنين؟!» (١).

وفي رواية أخرى عن معمر بن خلاد، قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: «.. هذا أبو جعفر قد أجلسه مجلسي وصيرته مكاني»، وقال: «إنا أهل بيت يتوارث أصاغرنا عن أكابرنا القذة بالقذة» (٢).

وهكذا نجد أن الإمام الرضا عليه السلام قد غدا شعلة من حركة لا تخمد من أجل التمهيد لإمامة ولده محمد عليه السلام وكان يرد شبهة صغر سن ولده بمنطق قرآني لا يمكن دحضه أو تأويله، ومما يعزز ما سبق نورد هذه الرواية ذات الدلالة: عن الخيزراني عن أبيه، قال: كنت واقفا بين يدي أبي الحسن الرضا عليه السلام بخراسان، فقال قائل: يا سيدي إن كان كون فيل من؟ قال: «إلى أبي جعفر ابني»، فكان القائل استصغر سن أبي جعفر، فقال أبو الحسن عليه السلام: «إن الله بعث عيسى بن مريم رسولا نبيا صاحب رسالة، مبتدأ في أصغر من السن الذي فيه أبو جعفر عليه السلام» (٣).

ثالثا: هوية الإمام المهدي (عج) في أخبار الرضا عليه السلام

شغلت قضية الإمام المهدي (عجل الله فرجه) حيزا كبيرا من تفكير إمامنا الرضا عليه السلام واكتسبت أهمية فائقة في توجهاته، لا سيما وإن المهدي المنتظر هو الرابع من ولده، وفيه معالم شبه منه، وكذلك للحركة التغييرية الكبرى التي سوف يضطلع بها من بعده، إذ من المنتظر أن تسود العدالة

(١) كشف الغمة ٣: ١٤٤.

(٢) كشف الغمة ٣: ١٤٤.

(٣) كشف الغمة ٣: ١٤٥.

العامّة جميع ما في الكون، فعن الحسين بن خالد، قيل للإمام الرضا عليه السلام: .. يا بن رسول الله ومن القائم منكم أهل البيت؟ قال: «الرابع من ولدي ابن سيّدة الإمام، يطهر الله به الأرض من كلّ جور، ويقدّسها من كلّ ظلم، وهو الذي يشكّ النَّاس في ولادته، وهو صاحب الغيبة قبل خروجه، فإذا خرج أشرقت الأرض بنوره، ووضع ميزان العدل بين النَّاس فلا يظلم أحد أحدا ..»^(١).

وكانت القضية المهديّة تغلغل في أعماق قلبه تغلغلا عميقا، وكان لسانه يلهج بالثناء والمدح والتقدير لصاحب الزمان (عجل الله فرجه) ويركز على أوجه التشابه بينهما، فعن الحسن بن محبوب أن الإمام الرضا عليه السلام قال: «.. بأبي وأمّي سمّي جدّي ﷺ وشبيهي وشبيهه موسى بن عمران عليه جيوب النور، يتوقّد من شعاع ضياء القدس .. يكون رحمة على العالمين، وعذابا على الكافرين»^(٢).

وكانت الشيعة بعد وفاة والده الكاظم عليه السلام قد دخلت في مرحلة الحيرة والتساؤل، تتساءل عن صاحب هذا الأمر من بعده، بعد أن اختلطت الرؤية عند البعض فتصوروا أن الإمام الرضا عليه السلام هو الإمام المهدي (عجل الله فرجه) نفسه، لذلك لم يترك إمامنا عليه السلام مناسبة إلا واغتنمها من أجل تبيان هوية الإمام المهدي (عجل الله فرجه) الحقّة، وإبقاء هذه المسألة الحيويّة حية وساخنة، فعن أيوب بن نوح، قال: قلت للرّضا عليه السلام: إنّنا نلرجو أن تكون صاحب هذا الأمر وأن يرده الله عزّوجلّ إليك من غير

(١) إكمال الدين وإتمام النعمة / الشيخ الصدوق ٢: ٣٧٢ / ح ٥ باب (٣٥).

(٢) إكمال الدين وإتمام النعمة / الشيخ الصدوق ٢: ٣٧٠ / ح ٣ باب (٣٥).

سيف، فقد بويع لك وضربت الدرهم بإسماك، فقال: « ما منّا أحد اختلفت إليه الكتب وسئل عن المسائل وأشارت إليه الأصابع وحملت إليه الأموال إلا اغتيل أو مات على فراشه حتى يبعث الله عزّوجلّ لهذا الأمر رجلاً خفيّ المولد والمنشأ غير خفيّ في نسه »^(١).

مما تقدم يظهر لنا أن الإمام الرضا عليه السلام يكرس الفكرة المهذوية ضمن إطارها التاريخي وليست مجردة عنه، فقد كشف النقاب عن الظروف التاريخية الضاغطة المحيطة به، والتي حالت أو تحول دون قيامه هو والأئمة من قبله ومن بعده بحركة تغييرية كبرى، وأفصح بأن قيام كل إمام قبل المهدي (عجل الله فرجه) كان يعرضه للاغتيال أو الموت المحتم أو الموت البطيء على فراش الموت.

فلا يُجدي - والحال هذه - العمل المكشوف، لكن الظروف الخفية التي سيتحرك فيها الإمام المهدي (عجل الله فرجه) وتخطيط رباي سوف تؤتي ثمارها المرجو إن شاء الله في تحقيق العدالة العالمية.

ونتيجة لكل ذلك كان الإمام الرضا عليه السلام يُسدي نصائحه لشييعته بالتزام التقية ويثني أحسن الثناء على من تمسك بها في مرحلة الغيبة.

ولكن الشارع الشيعي المعبأ بقوة الأمل، كان يتساءل على الدوام عن الفرج، فكان الإمام عليه السلام يتجاوب مع أماني المسلمين العريضة بظهور المهدي (عجل الله فرجه) بعبارات تبعث الأمل والرّجاء، ولكنه في نفس الوقت يوصي بالتزام الصبر وانتظار الفرج، وعدم ترك التقية. ويُلفت نظرهم بأن الظهور تبدو معاملته من اختصاص الغيب.

(١) إكمال الدين / الشيخ الصدوق ٢: ٣٧٠ / ح ١ باب (٣٥).

ومما يكشف عن تفاعل الإمام عليه السلام العميق مع قضية الإمام المهدي (عجل الله فرجه) أن «دعبل الخزاعي» لما أنشده قصيدته العصماء حول أهل البيت عليهم السلام التي أولها:
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات
فلما انتهى «دعبل» إلى قوله:

خروج إمام لا محالة خارج يقوم على اسم الله والبركات
يميز فينا كل حق وباطل ويجزي على النعماء والنقمات
بكى الرضا عليه السلام بكاء شديدا، ثم رفع رأسه إلى دعبل وقال كلاما مفعما بشحنة عاطفية كبيرة، وكاشفا في الوقت نفسه عن الدور المستقبلي الكبير الذي يضطلع به الإمام المهدي (عجل الله فرجه)، قال عليه السلام: «.. يا خزاعي، نطق روح القدس على لسانك بهذين البيتين، فهل تدري من هذا الإمام ومتى يقوم؟» فقلت: - والكلام لدعبل - لا يا مولاي، إلا أني سمعت أن إماما منكم يُطهّر الأرض من الفساد ويملأها عدلا كما مُلئت جورا.

فقال: «يا دعبل، الإمام بعدي محمد ابني، وبعد محمد ابنه علي، وبعد علي ابنه الحسن، وبعد الحسن ابنه الحجة القائم المنتظر في غيبته، المطاع في ظهوره، لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله عز وجل ذلك اليوم حتى يخرج فيملا الأرض عدلا كما مُلئت جورا»^(١).
وهكذا نجد أن القضية المهدوية قد اكتسبت أهمية فائقة في ذكر وسلوك الإمام الرضا عليه السلام فقد سر غورها بعمق وحدد معالمها وقدم الرؤية

(١) إكمال الدين / الشيخ الصدوق ٢: ٣٧١ باب (٣٥).

الواضحة حولها، مستبعدا الحقائق المتبورة والمشوهة عنها، والأهم من كل ذلك إبقاؤها حية وساخنة في نفوس الناس وفتح بصائرهم على الأسرار الكامنة وراءها.

المبحث الثالث: قاعدة الإمامة في عصر الإمام الرضا عليه السلام

توفرت للإمام الرضا عليه السلام قاعدة جماهيرية واسعة لم تتوفر لإمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام قبله، فقد « رضي به المخالفون من أعدائه كما رضي به الموافقون من أوليائه، ولم يكن ذلك لأحد من آبائه عليهم السلام، فلذلك سمي من بينهم الرضا عليه السلام »^(١).

وسوف نقف على بعض معالم هذه القاعدة من خلال ثلاثة أصناف:

أولاً: العلماء

تبتدى لنا عظمة الإمام الرضا عليه السلام واستحقاقه للإمامة من كلمات التقدير والثناء التي أطراه بها كبار علماء الشيعة من محدثين ومفسرين وكتاب ومتكلمين، وبعضهم تلاميذه المشهورون كأبي الصلت الهروي وإبراهيم بن عباس الصولي وأحمد بن محمد ابن أبي نصر البنزطي والحسن ابن محبوب، بعد أن وجدوه بحرا لا يدرك غوره، وجبالاً شامخاً لا تحزه عواصف الأحداث وأراجيف المبطلين، ويقف العالم الجليل أبي الصلت عبد السلام بن صالح الهروي في طليعة محدثي الشيعة الذين رافقوا الإمام الرضا عليه السلام وغرفوا من نعيم علمه، قال: ما رأيت أعلم من علي بن موسى الرضا عليه السلام، ولا رآه عالم إلا شهد له بمثل شهادتي، ولقد جمع المأمون في

(١) من حديث للإمام الجواد عليه السلام رواه البنزطي عنه. انظر: عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢٢، ح ١، باب

(١).

مجالس له ذوات عدد علماء الأديان وفقهاء الشريعة والمتكلمين فغلبهم عن آخرهم حتى ما بقي أحد منهم إلا أقر له بالفضل وأقر على نفسه بالقصور^(١). ولأبي الصلت شهادات أُخر يصوغها بعبارة جامعة، يرى فيها الإمام عليه السلام اسم على مسمى، فيقول: كان واللّه رضى كما سمي^(٢).

وهناك شهادة أخرى من كاتب كبير وشاعر ملهم هو إبراهيم ابن العباس الصولي الذي عاصر الإمام عليه السلام واتصل به اتصالاً وثيقاً، وقد لخص انطباعه عن الإمام عليه السلام بقوله: ما رأيت ولا سمعت بأحد أفضل من أبي الحسن الرضا عليه السلام، وشاهدت منه ما لم أشاهد من أحد^(٣)، وقال: ما رأيت الرضا عليه السلام سئل عن شيء قط إلا علمه، ولا رأيت أعلم منه بما كان في الزمان إلى وقته وعصره، وكان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كل شيء فيجيب عنه^(٤). ومن علماء الشيعة البارزين أحمد بن محمد ابن أبي نصر البزنطي المتوفى سنة (٢٢١ هـ -) وكان كوفياً ثقة، لقي الإمام الرضا عليه السلام، وكان عظيم المنزلة عنده، وروى عنه كتاباً، وله من الكتب (كتاب الجامع) وله (كتاب النوادر)، كان واقفياً ثم رجع لما ظهر له من المعجزات على يد الإمام الرضا عليه السلام الدالة على صحة إمامته، فالتزم الحجة وقال بإمامته وإمامة من بعده من ولده^(٥). أما الحسن بن محبوب السراد، ويقال له الزراد، المتوفى

(١) إعلام الورى ٢: ٦٤.

(٢) كشف الغمة ٣: ٨٣.

(٣) إعلام الورى ٢: ٦٣.

(٤) إعلام الورى ٢: ٦٣.

(٥) أنظر: الخرائج والخراج ٥: ٦٦٢.

سنة (٢٢٤ هـ -) فكان - كذلك - كوفيا ثقة، روى عن الإمام الرضا عليه السلام، وروى عن ستين رجلا من أصحاب الإمام أبي عبد الله عليه السلام، وكان جليل القدر، وألف مجموعة من الكتب، وعده الشيخ الكشي من الفقهاء الذين اجمع أصحابنا على تصحيح ما يصح عنهم عند تسمية الفقهاء من أصحاب الإمامين الكاظم والرضا عليه السلام ^(١)، كان يقر بإمامة الرضا عليه السلام ويراسله باستمرار، وإمامنا يصدقه ويثني عليه. ^(٢)

ونعرض شهادة أخرى من أحد أعلام الشيعة وهو الحسين بن بشار الواسطي، مولى زياد، ثقة، روى عن الإمامين الكاظم والرضا عليه السلام. في البداية لم يقر بموت الإمام الكاظم عليه السلام وعليه لم يعترف بإمامة الرضا عليه السلام ولكنه لما التقى وجد فيه ضالته المنشودة، وأيقن بإمامته، وصار من صفوة أتباعه والناشرين لعلومه. ^(٣)

ويدلي لنا قطب آخر من أقطاب التشيع هو عبد الله بن المغيرة مولى بني نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ^(٤)، كان واقفيا وحج على تلك الحالة فدعا الله تعالى أن يهديه إلى الإمام الحق، فالتقى بالإمام الرضا عليه السلام فأخبره بما في نفسه، قال والإعجاب والإكبار يملأ نفسه ويرتسم على قسماط وجهه: أشهد أنك حجة الله على خلقه. ^(٥)

تجدد الإشارة إلى أن بعض علماء الشيعة شهد بإمامة الرضا عليه السلام بناء

(١) أنظر: رجال الكشي: ٥٥٦.

(٢) رجال الكشي: ٤٨٩، ترجمة (٤٧٩).

(٣) رجال الكشي ٤٤٩: ٨٤٧، بحار الأنوار ٤٨: ٢٦٢ باب (١٠).

(٤) أنظر: رجال الشيخ الطوسي: ٣٧٩.

(٥) الخرائج والجرائح ١: ٣٦٠، ح ١٥ ن باب (٩).

على شهادة أبيه الإمام الكاظم عليه السلام بحقه، وتصريحه للمقربين من أصحابه بإمامته من بعده. وعلى العموم كان إمامنا حديث المجالس، وذكره لا يفتر على ألسن الناس، وقد بهر العقول بعلومه وحير الأفتدة بمعاجزه الباهرة، بحيث نجد معبد بن جنيد الشامي يدخل على الإمام الرضا عليه السلام ويقول له بالحرف الواحد: قد كثر الخوض فيك وفي عجائبك!!^(٤).

أيما حل ورحل يستقبل بالترحاب ويوجب على كل الأسئلة التي توجه إليه، ولو كانت من أجل اختباره، ومن مصاديق ذلك أنه لما وصل البصرة واختبره جماعة من علمائها، منهم عمرو بن هند، وقد أخبر الإمام عليه السلام بن هند بأنه سيصاب بعلّة، وقد حصل ما أخبر به، قال محمد بن الفضل: فشهد له الجماعة بالإمامة^(١). وقال عليه السلام: « يا محمد انظر من الكوفة من المتكلمين والعلماء فأحضرهم .. إني أريد أن أجعل لكم حظًا من نفسي كما جعلت لأهل البصرة »^(٢). لقد كان صيته قد طبق الآفاق وأقر كل من التقى به من علماء الشيعة باستحقاقه الإمامة وأهليته لها.

كان مظهره عليه السلام يخبر عن سريره وطويته، عندما يتكلم ينساب صوته العذب كمثل الماء المنساب، وحينما يصمت يستغرق في صمت بليغ كصمت الطبيعة، هذه الخصال ملأت نفوس العلماء والناس بالإجلال والهيبة له، وكانت من القرائن القوية على أهليته للإمامة، وساعدت على التفاف العلماء حوله وتعطشهم لحديثه.

(١) دلائل الإمامة: ٣٦٣.

(٢) الخرائج والجرائح / الراوندي ١: ٣٤٢ - ٣٤٨.

(٣) الخرائج والجرائح / الراوندي ١: ٣٤٩.

ومن الشواهد على الإجلال والهيبة التي لقاها من علماء عصره، وحتى من أهل بيته، ما جاء عن سليمان بن جعفر، قال: قال لي علي بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (صلوات الله عليهم): أشتهي أن أدخل على أبي الحسن الرضا عليه السلام أسلم عليه، قلت: فما يمنعك من ذلك؟ قال: الإجلال والهيبة له ^(١).

وكان بعض كبار علماء الشيعة يطلبون لقاء الإمام عليه السلام لا لشيء إلا لالتماس البركة منه، وحكاياتهم في هذا كثيرة، وهو أمر معهود في شأن عمداء أهل بيت النبوة، ناهيك عن اعتقادهم بأنه الإمام الحق الواجب الطاعة ..

ثانياً: جمهور الناس

لما كانت أسرار الرسالة ومفاتيح كنوزها قد انتهت إلى الإمام الرضا عليه السلام غدت جموع الجماهير تحفُّ به، وبالمقابل كان الإمام عليه السلام يكن للناس كل الحب والعطف، وعندما تحف به الجماهير تتألق ملامحه بالبشر والنور، وتفيض عيناه بالوداعة واللطف، كانت شخصيته ذات جاذبية خاصة تجذب القلوب المؤمنة والنفوس الطاهرة كما يجذب شذا الأزهار النحل، أينما يرحل أو يحل يمطروه بوابل كلمات التقدير والتبجيل، يتعطشون إلى رؤيته تعطش الضمآن إلى الماء.

عن أبي حبيب النجاشي، قال: جاءني من أخبرني بقدوم أبي الحسن الرضا عليه السلام من المدينة، ورأيت الناس يسعون إليه .. ^(١). وعبارة «يسعون إليه» تكشف لنا مدى شوق الناس للإمام الرضا عليه السلام وشدة محبتهم له، فقد كانوا

(١) رجال الكشي: ٤٩٥، ترجمة (٤٨٥).

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢٢٧، ح ١٥، الباب (٤٧).

يتبركون به ويسألونه عن معالم دينهم وعن الحلال والحرام .. روى الكليني في (الكافي) بسنده عن اليسع بن حمزة، قال: كنت في مجلس أبي الحسن الرضا عليه السلام وقد اجتمع إليه خلق كثير يسألونه عن الحلال والحرام .. (٢).

كان شذا علمه وبيانه يجذب الناس، كانت ترنو إليه أبصارهم وتحقق إليه عيونهم، وكانوا يلتمسون البركة في كل شيء يلامسه بدنه، روى الصدوق: أن الرضا عليه السلام لما دخل نيسابور نزل في محلة يقال لها القزويني، أو الغزيني، فيها حمام، وهو الحمام المعروف اليوم بحمام الرضا، وكانت هناك عين فدخل ماءها فأقام عليها من أخرج ماءها حتى توفر وكثر، واتخذ من خارج الدرب حوضاً ينزل إليه بالمراقي إلى هذه العين فدخله الرضا عليه السلام واغتسل فيه ثم خرج منه فضلى على ظهره والناس يتناوبون ذلك الحوض ويغتسلون منه التماساً للبركة ويصلون على ظهره، ويدعون الله عز وجل في حوائجهم، وهي العين المعروفة بعين كهلان يقصدها الناس إلى يومنا هذا (١).

كان الرضا عليه السلام آية الحق وراية العدل ورمزا للفضيلة، وكانت روعة الإيمان تغطي وجهه، لذلك كانت له في قلوب الناس هيبة كبيرة، يروى أنه لما خرج للصلاة في مرو ورآه القمّود والعسكر رموا بأنفسهم عن دوابهم ونزعوا خفافهم وقطعوها بالسكاكين لما رأوه راجلاً حافياً، وأنه لما هجم الجند على دار المأمون بسرخس بعد قتل الفضل بن سهل وجاءوا بنار ليحرقوا الباب وطلب منه المأمون أن يخرج، فلما خرج وأشار إليهم أن

(١) أعيان الشيعة ٢: ١٥.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٤٥، ح ٤، باب (٣٧).

يتفرّقوا تفرّقوا مسرعين ^(٢).

صفوة القول ؛ لقد فجر الإمام أماننا نхра من العاطفة في قلب كل انسان مسلم، فقد وجدوا فيه انسانية فذة استمدتها من روح الرسالة.

ثالثاً: الشعراء

كان الشعراء يتوافدون اليه، ينظمون القوافي ويتفننون في صوغ قوالب المعاني التي تشيد بفضله ومنزلته. كان دعبل الخزاعي من أبرز شعرائه، فقد كان كل ولاءه موجها نحو العلويين، حتى أنه جهر بعدائه الشديد للخلفاء العباسيين، وهجاهم هجاء لاذعا مرّ، وأبدى دعبل حبه لبيعة المأمون للإمام العلوي الرضا بولاية العهد، فدخل عليه بمرو فقال له: يا ابن رسول الله، اني قد قلت فيكم قصيدة، وآليت على نفسي أن لا أنشدها أحدا قبلك. فقال عليه السلام: « هاتها » فأنشده:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات
فلما بلغ إلى قوله:

أرى فيهم في غيرهم متقسّبا وأيديهم من فيهم صفرات
بكى أبو الحسن الرضا عليه السلام وقال له: « صدقت ياخزاعي » فلما بلغ إلى قوله:
إذا وتروا مدّوا إلى واتريهم أكفّبا عن الأوتار منقبضات
جعل الرضا عليه السلام يقلّب كفيه ويقول: « أجل والله منقبضات » فلما بلغ قوله:

(١) أنظر: الإرشاد ٢: ٢٦٥ و ٢٦٧.

لقد خفت في الدنيا وأيام سعيها وإني لارجو الأمن بعد وفاتي
قال الرضا عليه السلام: « أمنك الله يوم الفزع الأكبر » فلما انتهى إلى قوله:
وقبر بيغداد لنفس زكيّة تضمّنها الرحمن في العُرفات
وهي قصيدة عصماء، من أشهر ما قيل من الشعر في أهل البيت عليهم السلام ^(١).
وأنشده إبراهيم بن عباس:
أزالت عناء القلب بعد التجلّد مصارع أولاد النبي محمد
فوهب لهما عشرين ألف درهم من الدراهم التي عليها اسمه، وكان المأمون أمر بضربها في
ذلك الوقت.

قال: أما دعبل فصار بالعشرة آلاف التي حصته إلى قوم، فباع كل درهم بعشرة دراهم،
فتخلصت له مائة ألف درهم، الأمر الذي يحكي بوضوح مدى تعلق قاعدة الإمام الرضا
عليه السلام بكل ما خرج عنه مطلقاً، وأما إبراهيم فلم تنزل عنده بعد أن أهدى بعضها وفرق
بعضها على أهله إلى أن توفي عليه السلام، وكان كفنه وجهازه منها.

أما أبو نؤاس، فارس الشعر في زمانه، فقد أدلى بدلوه، وأظهر جواهر شعره بعد صمت
طويل، فلما وفد على المأمون، قال له: يا أبا النؤاس، قد علمت مكان علي بن موسى الرضا
مني وما أكرمه به، فلماذا أخّرت مدحه وأنت شاعر زمانك وقريع دهرك؟ فأنشده يقول:

قيل لي أنت أوحّد الناس طرا في فنون من الكلام النبويه
لك من جوهر الكلام بديع يثمر الدر في يدي مجتنيه
فعلى م تركت مدح ابن موسى والخصال التي تجمعن فيه

(١) إعلام الوری ٢: ٦٧.

قلت لا أهتدي لمُدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه فقال المأمون: أحسنت! ووصله من المال بمثل الذي وصل به كافة الشعراء، وفضله عليهم^(١).

وعن علي بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه، قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن يحيى الفارسي، قال: نظر أبو نؤاس إلى أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام ذات يوم وقد خرج من عند المأمون على بغلة له، فدنا منه أبو نؤاس، فسلم عليه وقال: يا ابن رسول الله، قد قلت فيك أبياتا فأحب أن تسمعها مني، قال: « هات » فأنشأ يقول:

مطهّرون نقيّات ثيابهم تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا
 من لم يكن علويًا حين تنسبه فما له من قدم الدهر مفتخر
 فالله لما برى خلقًا فأتقنه صفّاكم واصطفاكم أيها البشر
 فأنتم المالأ الأعلى وعندكم علم الكتاب وما جاءت به السور
 فأكرمه الإمام ثلاثمائة دينار كانت نفقته، وساق إليه بغلته^(٢).

مما تقلمّ ظهر لنا سعة قاعدة امامة الرضا عليه السلام بين الناس؛ العلماء منهم والجمهور والشعراء، وليس ثمة عبارة تعكس ذبوع صيته وسعة دائرة مواليه، أم من عبارة أبي جعفر عليه السلام: « رضي به المخالفون من أعدائه كما رضي به الموافقون من أوليائه »^(٣).

(١) إعلام الوري ٢: ٦٥، سير أعلام النبلاء ٩: ٣٨٩. غير أن المعروف أن أبا نؤاس توفي سنة ١٩٥ أو

١٩٦ أو ١٩٨، أي قبل ولاية الإمام الرضا عليه السلام بستين على الأقل.

(٢) إعلام الوري ٢: ٦٥، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥٥، ح ١٠، باب (٤٠).

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٢، باب (١).

الفصل الرابع

دور الإمام الرضا عليه السلام في صيانة الفكر الإسلامي

إن الإسلام كفكر أصيل قد وضعت أسسه واتضحت معالمه وتشخصت أركانه في عصر الرسالة، وعليه فهو ليس بحاجة إلى صياغة جديدة وإنما بحاجة ماسة إلى قراءة تجلّي صورته الأصلية وفق رؤية واضحة، خصوصاً بعد أن ظهرت الفرق والمذاهب وهبّت تيارات فكرية دخيلة أثرت على نقاء العقيدة وغدا الفكر الإسلامي فسيفساء عجيباً من الاتجاهات المتناقضة والمتنافرة.

وبطبيعة الحال فإن الإمام المعصوم بما يتصف به من عصمة على صعيد الفكر والسلوك، وبما يمتلكه من عمق علمي، هو المؤهل للعمل على تقديم هذه القراءة المطلوبة لتنقية المعارف الإسلامية من الشوائب والشبهات التي علقت بها من جراء المسلكين الانحرافي، والتحريفي ويمثل المسلك الانحرافي التيارات الفكرية التي تناقض العقيدة الإسلامية بشكل مباشر، كالإلحاد والزندقة والغلو والتناسخ، أما المسلك التحريفي فتمثله التيارات المحسوبة على الإسلام والتي تحرف عن عمد أو غير عمد مضمون العقيدة الإسلامية الصافي، كالتجسيم، والتشبيه، والجبر، والتفويض، والإرجاء. فنحن إذن أمام عبء دونه زحزحة الجبل.

لقد انحسر جانب كبير من قيم وتعاليم الإسلام في واقع الأمة الثقافي والأخلاقي والسياسي في عصر الامويين والعباسيين، وأخذ هذا الانحسار يرسخ جذوره في عمق الواقع الحياتي للأمة، وامتدت تأثيراته في مساحات كبيرة من مجتمع المسلمين، وبدأ المسخ الحضاري لهوية الأمة. وقد أصاب القيم الإسلامية اهتزاز كبير وتعرضت روحية الأمة إلى هبوط واضح، ووجدت القيم الجاهلية لها مرتعا خصبا في ظل الحكومات المنحرفة.

في ظل هذا الواقع وجد الأئمة عليهم السلام أنفسهم أمام مسؤولياتهم الرسالية الكبيرة وعلى رأسها صيانة الفكر الإسلامي من خلال التصدي للتيارات الفكرية ذات الصبغة الانحرافية والتحريفية.

وتجدر الإشارة إلى أن الأدوار التي مارسها الأئمة من أهل البيت عليهم السلام في مختلف المراحل، ليست هي مواقف ارتجالية انفعالية لمواجهة تحديات طارئة، بقدر ماهي أدوار تنطلق من تشخيص دقيق للظروف الموضوعية التي تمر بها الحالة الإسلامية على كل المستويات. وغني عن القول أن العوامل السياسية المتغيرة والضاغطة ودرجة وعي الأمة في كل مرحلة أو مقطع زماني هي من العوامل الأساسية في تنوع أدوار الأئمة تجاه الأمة، وإن كانت هناك أدوار مشتركة بينهم عليهم السلام.

لقد استطاع الإمام الرضا عليه السلام أن يستغل فترة التحول السياسي الذي أحدثه المأمون في مسار السياسة العباسية تجاه أهل البيت عليهم السلام من أجل إحداث نقلة نوعية على صعيد الفكر الإسلامي وأن يخرج منه قفص التقليد والجمود السائد، بعد أن سد الساسة وعلماء البلاط على الناس

منافذ الرؤية السليمة للإسلام من خلال أفكار الجبر والإرجاء، وحرفوا أذهانهم عن التوحيد الحقيقي بفعل التحسيم والتشبيه وما شابه ذلك. لذلك أراد الإمام عليه السلام أن يضبط عدسة رؤيتهم على منظور سليم للإسلام مستغلا الانفتاح الثقافي الذي حدث في عصر المأمون وتشجيعه الحركة الثقافية بمختلف تياراتها واتجاهاتها.

وكان المأمون يستبطن غرضا شخصيا ذا صبغة سياسية، فقد حرص على انقطاعه عن الحجة أمام متكلمي الأديان والمذاهب الذين جلبهم من كل حدب وصوب من أجل توهين الإمام عليه السلام أمام العلماء والرأي العام، قال الشيخ الصدوق: كان المأمون يجلب على الرضا عليه السلام من متكلمي الفرق والأهواء المضلّة كل من سمع به حرصا على انقطاع الرضا عليه السلام عن الحجة مع واحد منهم، وذلك حسدا منه له ولمنزلته من العلم، فكان عليه السلام لا يكلم أحدا إلا أقر له بالفضل والترم الحجة له عليه ^(١).

ولكن إمامنا واجه التحدي وشمر عن ساعد الجهد، وحاجج رؤساء الأديان والملل في ذلك الزمان، ومن خلال عملية مطارحة الأفكار أذعن قادة الفكر الآخر للأدلة العلمية القاطعة التي أوردها الإمام عليه السلام حتى أن البعض قد أشهر إسلامه، كعمران الصابىء. وسوف نستعرض نماذج من مناظراته مع أهل الأديان والعقائد المختلفة أولا، ثم نستعرض ثانيا حواراته مع أهل الإسلام، والتي قدم من خلالها قراءة جديدة لقضايا شائكة كانت وما زالت موضع سجال بين علماء المسلمين، كقضايا عصمة الأنبياء والإمامة والبداء.

(١) التوحيد / الشيخ الصدوق: ٤٥٤، باب (٦٦).

المبحث الأول: حواراته عليه السلام مع أهل الأديان والملل والعقائد المختلفة

اتخذ الإمام الرضا عليه السلام من الحوار الهادف، المبني على الدليل، وسيلة إلى الإقناع، وكان حوارته عليه السلام مع أهل الأديان والعقائد المختلفة حواراً مفتوحاً، وذلك من خلال المناظرات التي عقدها معهم، وسعى من خلالها على إطلاق العقول من عقال الجهل والحيرة والضلالة. ولعل أهم شاهد نسوقه في هذا المجال مجلس الإمام الرضا عليه السلام مع أهل الأديان وأصحاب المقالات مثل الجاثليق ورأس الجالوت وعمران الصابيء والمهرزد الأكبر، في التوحيد، عند المأمون، ودار الحوار فيها حول مواضيع عقائدية حساسة، وقد استطاع الإمام الرضا عليه السلام تحقيق النتائج التالية:

أولاً: إثبات نبوة نبينا ﷺ من الكتب السماوية

تتمتع لنا عظمة وعلمية الإمام الرضا عليه السلام وكونه حجة لله على عباده من خلال معرفته الكاملة بالكتب السماوية، وحفظه التام لمتونها وإطلاعه الدقيق على ما تتضمنه من نصوص تثبت نبوة نبينا ﷺ بحيث لا يسعهم انكارها والتنصل منها، يتضح لنا ذلك من المناظرة التي جرت بمحضر المأمون وبطلب منه بين الإمام الرضا عليه السلام وبين الجاثليق النصراني ورأس الجالوت اليهودي، وقد طلب الجاثليق من الإمام الرضا عليه السلام بعد كلام بينهما أن يقيم شاهدي عدل على ما يقوله في إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ بقوله: فأقم شاهدين من غير أهل ملتك على نبوة محمد ممن لا تنكره النصرانية،

وسلنا مثل ذلك من غير أهل ملتنا.

قال الرضا عليه السلام: «الآن جئت بالنصفة يا نصراني، ألا تقبل مني العدل المقدم عند المسيح بن مريم؟».

قال الجاثليق: ومن هذا العدلُ سَمَّه لي. قال: «ما تقول في يوحنا الدبلمي؟!» قال: بخ بخ، ذكرت أحبَّ الناس إلى المسيح.

قال: «فأقسمت عليك هل نطق الإنجيل أن يوحنا قال: إنَّ المسيح أخبرني بدين محمد العربي وبشّرني به أنه يكون من بعده فبشرت به الحواريين فآمنوا به؟!» قال الجاثليق: قد ذكر ذلك يوحنا عن المسيح وبشّر نبوة رجل وأهل بيته ووصيه، ولم يُلخّص متى يكون ذلك ولم يُسمِّ لنا القوم فنعرّفهم، قال الرضا عليه السلام: «فإن جئناك بمن يقرء الإنجيل فتلا عليك ذكر محمد وأهل بيته وأُمَّته أتؤمن به؟!» قال: سديدا.

قال الرضا عليه السلام لقسطاس الرومي: «كيف حفظك للسفر الثالث من الإنجيل؟».

قال: ما أحفظني له! ثمّ التفت إلى رأس الجالوت فقال له: «ألست تقرء الإنجيل؟!» قال: بلى لعمري. قال: «فجُذ على السفر الثالث، فإن كان فيه ذكر محمد وأهل بيته وأُمَّته سلام الله عليهم فاشهدوا لي» وإن لم يكن فيه ذكره فلا تشهدوا لي، ثم قرأ عليه السلام السفر الثالث حتى إذا بلغ ذكر النبي عليه السلام وقف، ثم قال: «يا نصراني إنِّي أسألك بحق المسيح وأُمَّه أتعلم أيّ عالم بالإنجيل؟!» قال: نعم، ثمّ تلا علينا ذكر محمد وأهل بيته وأُمَّته، ثم قال: «ما تقول يا نصراني هذا قول عيسى بن مريم فإن كذّبت ما ينطق به الإنجيل فقد كذّبت عيسى وموسى عليه السلام، ومتى أنكرت هذا الذكر وجب

عليك القتل لأنك تكون قد كفرت برّبك ونبّيك وبكتابك».

قال الجاثليق: لا أنكر ما قد بان لي في الإنجيل، وإيّ لمقر به.

قال الرضا عليه السلام: « اشهدوا على إقراره ».

ثم قال عليه السلام: « يا جاثليق سل عمّا بدا لك »، قال الجاثليق: أخبرني عن حواربي عيسى

بن مريم، كم عدّتهم؟ وعن علماء الإنجيل، كم كانوا؟

قال الرضا عليه السلام: « على الخبير سقطت، أما الحواربيون فكانوا اثني عشر رجلاً، وكان

أفضلهم وأعلمهم ألقا، وأما علماء التّصاري فكانوا ثلاثة رجال: يوحنا الأكبر بأج، ويوحنا

بقرقيسيا، ويوحنا الدّيلمى بزجان، وعنده كان ذكر النّبي ﷺ وذكر أهل بيته وأمته، وهو

الذي بشر أمة عيسى وبني إسرائيل به ^(١).

والملاحظ أنه مع براعة اليهود في تحريف الكلم عن مواضعه، تمكن إمامنا الرضا عليه السلام من

إسكات رأس الجالوت، وفي سكوته هذا إقرار منه بما جاء في التوراة والإنجيل من البشارة

بنبوة نبينا محمد ﷺ.

هذا، وفي المجلس نفسه طلب رأس الجالوت من الإمام الرضا عليه السلام أن لا يحتج عليه إلا بما

في التوراة أو الإنجيل أو الزبور في إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ فقال عليه السلام: « شهد نبوته

ﷺ موسى بن عمران وعيسى بن مريم وداود خليفة الله عزّوجلّ في الأرض ».

فقال له: أثبت قول موسى بن عمران.

قال الرضا عليه السلام: « هل تعلم يا يهودي أنّ موسى أوصى بني إسرائيل، فقال لهم: إنّه سيأتيكم

نبي هو من إخوتكم فيه فصدّقوا، ومنه فاسمعوا؟

(١) التوحيد / الصدوق: ٤١٧ وما بعدها، باب (٦٥).

فهل تعلم أن لبي إسرائيل إخوة غير ولد إسرائيل من إسماعيل والنسب الذي بينهما من قبل إبراهيم عليه السلام؟»

فقال رأس الجالوت: هذا قول موسى لا ندفعه.

فقال له الرضا عليه السلام: «هل جاءكم من إخوة بني إسرائيل نبي غير محمد ﷺ؟!» قال: لا.

قال الرضا عليه السلام: «أو ليس قد صحَّ هذا عندكم؟!» قال: نعم، ولكني أحبُّ أن تصحَّحه لي من التوراة.

فقال له الرضا عليه السلام: «هل تنكر أن التوراة تقول لكم: جاء الثور من جبل طور سيناء، وأضياء لنا من جبل ساعير، واستعلن علينا من جبل فاران؟»

قال رأس الجالوت: أعرف هذه الكلمات، وما أعرف تفسيرها.

قال الرضا عليه السلام: «أنا أخبرك به، أما قوله: جاء الثور من جبل طور سيناء، فذلك وحي الله تبارك وتعالى الذي أنزله على موسى عليه السلام على جبل طور سيناء، وأما قوله: وأضياء لنا من جبل ساعير، فهو الجبل الذي أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى عيسى بن مريم عليه السلام وهو عليه، وأما قوله: واستعلن علينا من جبل فاران، فذلك جبل من جبال مكة بينه وبينها يوم، وقال شعيب التبيي عليه السلام فيما تقول أنت وأصحابك في التوراة: رأيت راكبين أضياء لهما الأرض، أحدهما راكب على حمار والآخر على جمل، فمن راكب الحمار ومن راكب الجمل.»

قال رأس الجالوت: لا أعرفهما، فخبِّرنِي بهما.

قال الرضا عليه السلام: «أما راكب الحمار فعيسى بن مريم، وأما راكب الجمل

فمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، أتتكم هذا من التوراة؟! « قال: لا ما أنكروه.

ثم استعرض الإمام الرضا عليه السلام نصوصاً أخرى من التوراة والإنجيل تبشّر نبوة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، ثم التفت عليه السلام إلى رأس الجالوت فقال: « يا يهودي أقبل علي أسألك بالعشر الآيات التي أنزلت على موسى بن عمران عليه السلام، هل تجد في التوراة مكتوباً نبأ محمد وأُمَّته: (إذا جاءت الأمة الأخيرة أتباع راكب البعير يُسبِّحون الرَّبَّ جَهَّ جَهَّ تسيحاً جديداً في الكنائس الجدد، فليفرغ بنو إسرائيل إليهم وإلى ملكهم لتطمئن قلوبهم، فإنَّ بأيديهم سيوفاً ينتقمون بها من الأمم الكافرة في أقطار الأرض) هكذا هو في التوراة مكتوب؟! ».

قال رأس الجالوت: نعم إنَّا لنجده كذلك.

ثم قال للجاثليق: « يا نصراني كيف علمك بكتاب شعيا؟ » قال: أعرفه حرفاً حرفاً.

قال الرضا عليه السلام لهما: « أتعرفان هذا من كلامه: (يا قوم إنِّي رأيت صورة راكب الحمار لابسا جلابيب الثور، ورأيت راكب البعير ضوءه مثل ضوء القمر)؟ » فقالا: قد قال ذلك شعيا. قال الرضا عليه السلام: « يا نصراني، هل تعرف في الإنجيل قول عيسى: إنِّي ذاهب إلى ربِّي وربِّكم، والفارقليط جاء هو الذي يشهد لي بالحقِّ كما شهدت له، وهو يُفسر لكم كلَّ شيء، وهو الذي يُبدي فضائح الأمم، وهو الذي يكسر عمود الكفر؟ ».

فقال الجاثليق -ق: ما ذكرت شيئاً ممَّا في الإنجيل إلا ونحن مقرُّون ب-ه.

فقال: « أتجد هذا في الإنجيل ثابتاً يا جاثليق! » قال: نعم (١).

إن قراءة متمعنة ما بين سطور هذه المناظرة تكشف عن الأفق المعرفي الرّحب الذي يتمتع به الإمام الرضا عليه السلام، وبهمنا هنا الإشارة إلى أن إمامنا عليه السلام حاول إصلاح الفكر والمقولات والرؤى لأقطاب أهل الأديان والملل من خلال الحجج القوية المجلجلة التي قرعت آذانهم وأفحمتهم أيما إفحام. ومن السهل أن نكتشف أن الإمام عليه السلام قد اتبع المنهج النقلي مع أهل الكتاب ممثلين بالجاثليق النصراني ورأس الجالوت اليهودي، فقد احتج على أهل التوراة بتوراتهم، وعلى أهل الإنجيل بإنجيلهم، وعلى أهل الزبور بزبورهم لتكون الحجة عليهم أقوم، ولقد وجدنا كيف أن الجاثليق رفض الاحتكام إلى نصوص القرآن، قائلاً منذ البداية: كيف أحاج رجلاً يحتج علي بكتاب أنا منكروه، وبنبي لاؤ من به؟! لذلك وقف إمامنا معهم على أرض مشتركة من الفهم، حيث خاطبهم بلغتهم وأورد نصوصاً من كتبهم لا يسعهم إنكارها.

ثانياً: إبطال عقيدة النصارى في المسيح عليه السلام

من المعروف أن النصارى تغلو في شخص عيسى عليه السلام فتسلب منه صفته البشرية وتمنحه صفة الألوهية وتعتقد بأنه ابن الله جلّ تعالى عن ذلك، وإمامنا الرضا عليه السلام في الوقت الذي أثبت فيه نبوة نبينا ﷺ بالدليل النقلي الوارد بالإنجيل عن طريق بشارة المسيح عليه السلام لحواريه بمبعثه من بعده، أبطل بالدليل العقلي عقيدة النصارى في المسيح المتسمة بالغلو

(١) التوحيد: ٤١٧ - ٤٤٠، باب (٦٥).

والبعيدة كل البعد عن التنزيه لله تعالى. ففي هذا المجلس الذي هو - بحسب تعبيرنا - بمثابة مؤتمر فكري عالمي، وجه إمامنا كلامه للجاثليق قائلاً:

« .. يا نصراني والله إنا لنؤمن بعيسى الذي آمن بمحمد ﷺ وما ننقم على عيساكم شيئاً إلا ضعفه وقلة صيامه وصلاته! »

قال الجاثليق: أفسدت والله علمك وضعفت أمرك، وما كنت ظننت إلا أنك أعلم أهل الإسلام!

قال الرضا عليه السلام: « وكيف ذلك؟ ».

قال الجاثليق: من قولك: « إن عيساكم كان ضعيفا قليل الصيام قليل الصلاة »، وما أفطر عيسى يوماً قط وما زال صائم الدهر، قائم الليل!، قال الرضا عليه السلام: فلمن « كان يصوم ويصلي؟! » قال: فخرس الجاثليق وانقطع.

قال الرضا عليه السلام: « يا نصراني، إني أسألك عن مسألة »، قال: سل، فإن كان عندي علمها أجبتك.

قال الرضا عليه السلام: « ما أنكرت أن عيسى كان يحيي الموتى بإذن الله عز وجل؟ ».

قال الجاثليق: أنكرت ذلك من قبل أن من أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص، فهو رب مستحق لأن يُعبد!

قال الرضا عليه السلام: « فإن اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى، مشى على الماء وأحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص، فلم تتخذة أمته رباً، ولم يعبده أحد من دون الله عز وجل، ولقد صنع حزقيال النبي عليه السلام مثل ما صنع عيسى ابن مريم عليه السلام فأحيا خمسة وثلاثين ألف رجل من بعد موتهم بستين سنة ... هذا في التوراة لا يدفعه إلا كافر منكم ».

قال رأس الجالوت: قد سمعنا به وعرفناه، قال: « صدقت ».

ثم قال الرضا عليه السلام: « لقد أبرأ - أي محمد ﷺ - الأكمه والأبرص والمجانين وكلمته البهائم والطير والجن والشياطين ولم نتخذة رباً من دون الله عزوجل، ولم ننكر لأحد من هؤلاء فضلهم، فمتى اتخذتم عيسى رباً جاز لكم أن تتخذوا اليسع وحزقييل رباً، لأنهما قد صنعا مثل ما صنع عيسى من إحياء الموتى، وغيره أن قوماً من بني إسرائيل هربوا من بلادهم من الطاعون وهم ألو ف حذر الموت فأماتهم الله في ساعة واحدة، فعمد أهل تلك القرية فحظروا عليهم حظيرة فلم يزالوا فيها حتى نخرت عظامهم وصاروا رميماً، فمر بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل فتعجب منهم ومن كثرة العظام البالية، فأوحى الله إليه أتحب أن أحييهم لك فتذرهم؟ قال: نعم يارب، فأوحى الله عزوجل إليه أن نادهم، فقال: أيتها العظام البالية قومي ياذن الله عزوجل، فقاموا أحياء أجمعين ينفضون التراب عن رؤوسهم.

ثم إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن حين أخذ الطيور وقطعت قطعاً ثم وضع على كل جبل منهن جزءاً ثم ناداهن فأقبلن سعياً إليه، ثم موسى بن عمران وأصحابه والسبعون الذين اختارهم صاروا معه إلى الجبل فقالوا له: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة فاحترقوا عن آخرهم وبقي موسى وحيداً، فقال: يارب اخترت سبعين رجلاً من بني إسرائيل فحنت بهم وأرجع وحدي، فكيف يصدقني قومي بما أخبرهم به، فلو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أفتهلكنا بما فعل السفهاء منا، فأحياهم الله عزوجل من بعد موتهم، وكل شيء ذكرته لك من هذا لا تقدر على دفعه لأن التوراة والانجيل والزبور والفرقان قد نطقت به، فإن كان كل من أحيا الموتى وأبرأ

الأكمه والأبرص والمجانين يُتخذ رباً من دون الله فاتخذ هؤلاء كلهم أرباباً، ما تقول يا نصراني؟! «.

قال الجاثليق: القول قولك ولا إله إلا الله.

وهكذا أثبت الإمام عليه السلام للجاثليق خطأ زعمهم ألوهية عيسى عليه السلام.

ولما تشعب الكلام معه حول الإنجيل وكيف فقد ومن ثم كتبه تلاميذ تلاميذ المسيح من بعده، أماط الإمام الثام عن التحريف الذي حصل للإنجيل بعد ضياعه، وكيف أن تلاميذ تلاميذ المسيح قد خطوه بأيديهم وحرفوه واختلفوا فيه حول طبيعة المسيح عليه السلام، أقر الجاثليق بكل ما جاء به الإمام الرضا عليه السلام عن الإنجيل وكيفية تحريفه، فقال موجهاً كلامه للإمام عليه السلام:

قد بان لي من فضل علمك بالإنجيل وسمعت أشياء ممّا علمته شهد قلبي أنّها حقّ فاستزدت كثيراً من الفهم^(١).

وعندما كشف الإمام عليه السلام عن التناقض الذي وقع فيه علماء الإنجيل - لوقا ومرقابوس ومتى ويوحنا - حول طبيعة المسيح عليه السلام، أذعن الجاثليق بهذه الحقائق، وأقر بالعمق المعرفي للرضا عليه السلام، ثم قال: فلا وحقّ المسيح ما ظننت أنّ في علماء المسلمين مثلك^(٢).

ثالثاً: الرد على عقيدة اليهود

تطرق إمامنا مع رأس الجالوت إلى معاجز موسى عليه السلام واستغرب من

(١) التوحيد: ٤١٧ - ٤٤٠، باب (٦٥).

(٢) التوحيد: ٤١٧ - ٤٤٠، باب (٦٥).

إقراره بها مع انكاره معاجز الأنبياء من قبله أو من بعده كمعاجز عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم وتساءل قائلا: «أرأيت ما جاء به موسى من الآيات، أشاهدته؟! أليس إنما جاء في الاخبار من ثقات أصحاب موسى أنه فعل ذلك؟!» قال: بلى.

قال: «فكذلك أتتكم الاخبار المتواترة بما فعل عيسى بن مريم فكيف صدقتم بموسى ولم تصدقوا بعيسى؟!» فلم يُجر جوابا.

قال الرضا عليه السلام: «كذلك أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به وأمر كل نبي بعنه الله، ومن آياته أنه كان يتيما فقيرا أجيورا ولم يختلف إلى معلّم، ثم جاء بالقرآن الذي فيه قصص الأنبياء وأخبارهم حرفا حرفا وأخبار من مضى ومن بقي إلى يوم القيامة، ثم كان يُخبرهم بأسرارهم وما يعملون في بيوتهم، وجاء بآيات كثيرة لا تحصى».

قال رأس الجالوت: لم يصحّ عندنا خبر عيسى ولا خبر محمد، ولا يجوز لنا أن نُقرّ لهما بما لم يصحّ.

قال الرضا عليه السلام: «فالشاهد الذي شهد لعيسى ولمحمد صلى الله عليه وآله وسلم شاهد زور!» لم يُر جوابا ^(١).

رابعاً: الرد على الجوس

ليس خافيا بأن الجوس ^(٢) أناس منحرفو العقيدة والفتنة يعبدون

(١) التوحيد: ٤١٧ - ٤٤٠، باب (٦٥).

(٢) أتباع زرادشت. وهو رجل من أذربيجان. ادعى النبوة، ويتفق الجوس على أن الله تعالى

النار ويحللون الزواج من المحارم، بدون دليل أو برهان سوى التقليد الأعمى للآباء، فحاول إمامنا عليه السلام أن يدهم على الطريق السوي ويوقفهم على أفق أرحب، وأن يخرج بوعيمهم من قفص التقليد:

دعا الإمام الرضا عليه السلام الهريذ الأكبر فقال له: « زرادشت الذي تزعم أنه نبي، ما خجّتك على نبوته؟ ».

قال: إنه أتى بما لم يأتنا به أحد قبله، ولم نشهده، ولكن الأخبار من أسلافنا وردت علينا بأنه أحلّ لنا ما لم يحلّه غيره فاتّبعتناه.

قال عليه السلام: « أفليس إنمّا أتكم الأخبار فاتّبعتموه؟! » قال: بلى.

قال: « فكذلك سائر الأمم السالفة أتتهم الأخبار بما أتى به النبيون وأتى به موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم، فما عذرکم في ترك الإقرار لهم إذ كنتم إنّما أقرتم بزرادشت من قبل الأخبار المتواترة بأنه جاء بما لم يجيء به غيره؟! » فانقطع الهريذ مكانه (١).

لقد وجد الإمام عليه السلام أن أصحاب زرادشت تضيق عدسة الرؤية لديهم فيؤمنون بالأخبار الواردة من قبل آبائهم عن زرادشت دون غيره، وهذا التخصيص لا يستقيم على سكة العقل السوية، فإذا كان منهمجهم في الاعتقاد قائما على النقل عن الآباء فلماذا لا يعتمدون على ذات المنهج الذي اتبعه الأنبياء؟! الذين جاءوا - كذلك - بما لم يجيء به غيرهم من الشرائع،

يسلم العالم إلى الشيطان سبعة آلاف سنة يحكم ويفعل ما يريد. وبعد ذلك عهد أن يقتل الشيطان. وهذا الكلام غير لائق بالعقلاء (انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، فخر الدين الرازي: ١٢٠، الفصل الثالث).
(١) التوحيد: ٤١٧ - ٤٤٠، باب (٦٥).

وفوق ذلك كانوا يبرهنون على صحة نبوتهم بالمعاجز الباهرة والبراهين القاطعة؟

خامسا: الرد على الصابئة:

ثم وصلت النوبة إلى عمران الصابئ، وكان واحدا من المتكلمين، فسأل الإمام عليه السلام عن الكائن الأول وعمّا خلق.

قال عليه السلام: « سألت فافهم، أمّا الواحد فلم يزل واحدا كائنا لا شيء معه بلا حدود ولا أعراض ولا يزال كذلك .. واعلم يا عمران أنه لو كان خلق ما خلق لحاجة لم يخلق إلا من يستعين به على حاجته، وكان ينبغي أن يخلق أضعاف ما خلق لأنّ الأعوان كلّما كثروا كان صاحبهم أقوى، والحاجة يا عمران لا يسعها لأنّه لم يحدث من الخلق شيئا إلا حدثت فيه حاجة أخرى، ولذلك أقول: لم يخلق الخلق لحاجة، ولكن نقل بالخلق الحوائج بعضهم إلى بعض وفضّل بعضهم على بعض، بلا حاجة منه إلى من فضّل، ولا نقمة منه على من أذلّ، فلهذا خلق.

وتطرق معه في النقاش لمسائل مختلفة في توحيد الله وأسفرت هذه المناظرة عن اعتراف عمران الصابئ بصواب أجوبة الإمام الرضا عليه السلام على أسئلته الحساسة والمختلفة، وعلى إثر ذلك أعلن إسلامه أمام المأمون مخاطبا الإمام الرضا عليه السلام بقوله: .. قد فهمت وأشهد أنّ الله على ما وصفته ووحدته، وأنّ محمدا عبده المبعوث بالهدى ودين الحقّ، ثم حرّ ساجدا نحو القبلة وأسلم.

قال الحسن بن محمد النوفلي: فلما نظر المتكلمون إلى كلام عمران الصابئ، وكان

جدلا لم يقطعه عن حجّته أحد قط، لم يدن من الرضا عليه السلام

أحد منهم ولم يسألوه عن شيء، وأمسينا فنهض المأمون والرّضا عليه السلام فدخلا وانصرف الناس .. (١).

ويلاحظ أن الإمام عليه السلام قد اتبع المنهج العقلي مع غير أهل الكتاب كأصحاب زرادشت ورؤساء الصابئين، وذلك لأن هؤلاء لا يؤمنون بالنقل أو النصوص من حيث الأساس.

سادسا: الرد على الزنادقة

وإذا أمعنا النظر في طريقة حوارهم مع الزنادقة نجد أنه اتبع معهم ذات المنهج الأخير - أي المنهج العقلي - لعدم إيمان هؤلاء بالله تعالى وكتبه وأنبيائه، وكان يتبع مع أمثال هؤلاء أسلوب (التداول الحر للأفكار)، يتّضح لنا ذلك من خلال حوار الإمام عليه السلام مع أحد الزنادقة:

عن محمد بن عبد الله الخراساني، خادم الرضا عليه السلام، قال: دخل رجل من الزنادقة على الرضا عليه السلام وعنده جماعة، فقال له أبو الحسن عليه السلام: «أرأيت إن كان القول قولكم، وليس هو كما تقولون، ألسنا وإياكم شرع سواء، ولا يضرنّا ما صلينا وزكينا وأقررنا؟» فسكت، فقال أبو الحسن عليه السلام: «وإن يكن القول قولنا، وهو قولنا، وكما نقول، ألستم قد هلكتم ونجوننا؟» قال: رحمك الله فأوجدني كيف هو؟ وأين هو؟ قال: «وبلك، إن الذي ذهب إليه غلط، وهو أين الأين ولا أين، وكيف وكيف وكان ولا كيف، فلا يُعرف بكيفوفية، ولا بأينونية، ولا يدرك بحاسة ولا يُقاس بشيء».

قال الرجل: فإذاً انه لا شيء إذا لم يدرك بحاسة من الحواس!

(١) التوحيد: ٤١٧ - ٤٤٠، باب (٦٥).

فقال أبو الحسن عليه السلام: « ويلك إذا عجزت حواسك عن إدراكه أنكرت ربوبيته، ونحن إذا عجزت حواسنا عن ادراكه أيقنّا انه ربنا، وأنه شيء بخلاف الأشياء ». »

قال الرجل: فأخبرني متى كان؟!

قال أبو الحسن عليه السلام: « أخبرني متى لم يكن، فأخبرك متى كان؟! ». »

قال الرجل: فما الدليل عليه؟

قال أبو الحسن عليه السلام: « إني لما نظرت إلى جسدي فلم يمكني زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفعت المكاره عنه وجر المنفعة اليه، علمت أن لهذا البنيان بانيا، فأقررت به، مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته، وإنشاء السحاب، وتصريف الرياح، ومجرى الشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك من الآيات العجيبات المتقنات، علمت أن لهذا مقلداً ومنشأً ». »

قال الرجل: فلم احتجب؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: « إن الحجاب على الخلق، لكثرة ذنوبهم، فأما هو فلا يخفى عليه خافية في آناء الليل والنهار ». »

قال: فلم لا تدركه حاسة الأبصار؟

قال: « للفرق بينه وبين خلقه الذين تدركهم حاسة الأبصار منهم ومن غيرهم، ثم هو أجل من أن يدركه بصر أو يحيطه وهم أو يضبطه عقل ». »

قال: فحده لي؟

قال: « لا حد له », قال: ولم؟

قال: « لأن كل محدود متناه إلى حد، وإذا احتتم التحديد احتتم الزيادة، وإذا احتتم الزيادة احتتم النقصان، فهو غير محدود ولا متزايد

ولا متناقض ولا متجزئ ولا متوهم .. » ^(١).

نستخلص من هذا النص ومما سبقه أن الإمام عليه السلام كان يحتاج الخصوم بصدر رحب وطول نفس، وبأسلوب يتناسب مع عقلية الخصم سواء كان من أهل الكتاب أو غيرهم ليلزمهم بما ألزموا به أنفسهم.

المبحث الثاني: حواراته مع أهل الإسلام

لم يهدف الإمام الرضا عليه السلام من مناظراته وخاصة مع أهل الإسلام إلى كسب المناظرة والحوار، وإنما إلى إيصال الحقيقة الدينية الصحيحة، وتنقية العقيدة الإسلامية من كل الشوائب التي لحقت بها والشبهات التي تثار حولها، خصوصاً بعد أن اختلط الحق بالباطل، والتبست السنّة بالبدعة. والملاحظ أنه اعتمد في مناظراته مع أهل الإسلام على المنهج النقلي - من قرآن وسنّة نبوية - بصورة أساسية. وكان ينتزع إجاباته من هذين المصدرين بدون تكلف أو اعتساف في تحميل النصوص. علماً بأن المأمون قد جهد منذ البداية على إحراج الإمام الرضا عليه السلام أمام أهل الأديان والملل المختلفة الذين حشدتهم من كل ملة ومكان لأجل هذه الغاية.

ولكنه خابت ظنونه بأهل الأديان وخسر الصفقة، ومن هنا حاول أن يعيد التجربة، فحشد له - هذه المرة - أبرز علماء الإسلام ومتكلميهم، أمثال: علي بن محمد بن الجهم ويحيى بن الضحاك السمرقندي وسليمان المروزي، وكان العالمان الأخيران من أبرز علماء خراسان في ذلك الزمان.

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١ / ١٢٠، ح ٢٨، باب (١١).

وكان المأمون يأمرهم بإثارة مواضيع حساسة مع الإمام الرضا عليه السلام، كمسألة عصمة الأنبياء، ومسألة الإمامة، والبداء، وما إلى ذلك.

أولاً: مناظرته عليه السلام حول عصمة الأنبياء عليهم السلام

يعتقد أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الأنبياء (صلى الله عليهم) معصومون، بمعنى عدم اقترافهم جريمة ولا ذنب ولا خطيئة حتى الغلط والخطأ والسهو والغفلة والنسيان. ومعصومون كذلك عن كل ما ينفي الحشمة والكرامة منذ ولادتهم وإلى وفاتهم. والشيععة الإمامية يقولون بعصمة الأنبياء قبل البعثة وبعدها، ويستدلون على وجوب عصمتهم بأدلة عقلية عديدة. ولما كان بعض المسلمين يجورّ صغائر الذنوب على الأنبياء، كالمعتزلة، والبعض الآخر كالأشعرية والحشوية يُجوز ارتكابهم الكبائر فضلاً عن الصغائر، إلا الكفر والكذب، ويستدلون على ذلك بظواهر بعض الآيات القرآنية.

وجد أئمة أهل البيت عليهم السلام أن هذا الفهم يتصادم مع العقل ولا يليق بمكانة الأنبياء عليهم السلام ومنزلتهم، ويترك آثاراً سلبية على العقيدة الإسلامية، فقاموا، وهم تراجم القرآن، ببيان شاف لجميع الآيات التي يظهر منها نسبة الخطأ أو المعصية للأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، وقد قام إمامنا الرضا عليه السلام بإمطة الستار عن المعاني القرآنية الحقيقية التي تتحدّث عن الأنبياء والرسل، وبدّد ضباب الغيب والتشويش وسوء الفهم الذي حجب دلائلها. عن أبي الصلت الهروي قال: لما جمع المأمون لعلي بن موسى الرضا عليه السلام

أهل المقالات، فلم يقيم أحد إلا وقد أُلزمه حجّته كأنه أُلقم حجرا، قام إليه علي بن محمد بن الجهم، فقال له: يا ابن رسول الله أتقول بعصمة الأنبياء؟ قال: « نعم ».

قال: فما تعمل في قول الله عزّ جل: (وَعَصَى آدَمَ رَبَّهُ فَغَوَى)^(١) وفي قوله عزّ جل: (وَإِذْ نُنُوتُ إِذْ دَهِبَ مُعَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْبَهُ عَلَيْهِ)^(٢) وفي قوله عزّ جل في يوسف عليه السلام: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا)^(٣) وفي قوله عزّ جل في داود عليه السلام: (وَظَنَّ مَوْءُودًا أَنْبِيَا فَتَنَاهُ)^(٤) وقوله تعالى في نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم: (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ)؟^(٥)

فقال الرضا عليه السلام: « ويحك يا علي، اتق الله ولا تنسب إلى أنبياء الله الفواحش، ولا تتأو كتاب الله برأيك، فإن الله عزّ جل قال: (وَمَا يَعْلَمُ قَوْلَهُ إِلَّا اللَّهُ مَرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)^(٦). وأما قوله عزّ جل في آدم عليه السلام: (وَعَصَى آدَمَ رَبَّهُ فَغَوَى) فإن الله عزّ جل خلق آدم حجّة في أرضه وخليفته في بلاده لم يخلقه للجنة وكانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض وعصمته يجب أن تكون في الأرض ليتم مقادير أمر الله، فلما أهبط إلى الأرض وجعل حجّة وخليفة

(١) سورة طه: ٢٠ / ١٢١.

(٢) سورة الأنبياء: ٢١ / ٨٧.

(٣) سورة يوسف: ١٢ / ٢٤.

(٤) سورة ص: ٣٨ / ٢٤.

(٥) سورة الأحزاب: ٣٣ / ٣٧.

(٦) سورة آل عمران: ٣ / ٧.

عُصِمَ بِقَوْلِهِ عَزَّ جَلَّ: (لَيْلَةَ اللَّهِ اصْبَطَ قِيَامُ نُوْحًا وَكَوْنُ إِبْرَاهِيمَ وَكَوْنُ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) (١) « (٢) .

وعلى هذا السياق أجاب عليّ بن أبي طالب عن التهمة الشنيعة التي نسبت إلى داود عليّ بن أبي طالب من أنه اطلع في دار قائده «أوريا» فعشق امرأته فقدمه أمام التابوت في المعركة فقتل وتزوج بامرأته! فنسبوا داود عليّ بن أبي طالب - زورا وبهتاناً - إلى الفاحشة ثم القتل.

كما كشف عن سبب إخفاء النبي ﷺ ما بنفسه من أمر زواجه بزینب بنت جحش فقد أطلعه الله تعالى على أسماء أزواجه فوجد اسم زينب مع أسمائهن وكانت تحت زيد بن حارثة فخشى النبي ﷺ من المنافقين إن أخبر عن ذلك، فعاتبه تعالى بقوله: (وَتَخَشَّيَ النَّاسَ مِنْ اللَّهِ أَحَقُّ نَجَاتًا) (١) . وليس في هذا ذنب أو ارتكاب معصية.

ومن المناسب التذكير بأن أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام في تنزيه الأنبياء كثيرة مبثوثة في كتب الحديث والتفسير، ومنها استقى السيد الشريف المرتضى ردوده في كتابه (تنزيه الأنبياء).

وفي رواية أخرى أجاب الإمام عليّ بن أبي طالب على سؤال علق بذهن المأمون حول طلب موسى عليّ بن أبي طالب من ربه الرؤية، مع علمه باستحالة رؤيته تعالى بالأبصار؟!، فقال الرضا عليّ بن أبي طالب: « إنَّ كَلِيمَ اللَّهِ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَنْ أَنْ يُرَى بِالْأَبْصَارِ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَلَّمَهُ عَزَّوَجَلَّ وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا رَجَعَ إِلَى

(١) سورة آل عمران: ٣ / ٣٣.

(٢) عيون أخبار الرضا عليّ بن أبي طالب: ١ / ١٩١ / ١ باب (١٤).

(٣) سورة الأحزاب: ٣٣ / ٣٧.

قومه فأخبرهم أنّ الله عزّ وجلّ كلّمه وقرّبه وناجاه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعت .. فاختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربّه، فخرج بهم إلى طور سيناء، فأقامهم في سفح الجبل، وصعد موسى عليه السلام إلى الطور وسأل الله تبارك وتعالى أن يكلمه ويستمعهم كلامه، فكلمه الله تعالى ذكره وسمعوا من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام، لأنّ الله عزّ وجلّ أحدثه في الشجرة، ثم جعله منبعثاً منها حتى سمعوه من جميع الوجوه.

فقالوا: لن نؤمن لك بما هذا الذي سمعناه كلام الله حتى نرى الله جهره!! فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا، بعث الله عزّ وجلّ عليهم صاعقة فأخذتهم بظلمهم فماتوا، فقال موسى: يا ربّ ما أقول لبي إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا: إنك ذهبت بهم فقتلتهم لأنك لم تكن صادقاً فيما ادّعت من مناجاة الله إياك؟ فأحياهم الله وبعثهم معه، فقالوا: إنك لو سألت الله أن يُريك أن تنظر إليه لأجابك وكنت تُخبرنا كيف هو فنعرفه حقّ معرفته.

فقال موسى عليه السلام: يا قوم إنّ الله لا يرى بالأبصار ولا كيفية له، وإنّما يُعرف بآياته ويُعلم بأعلامه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى عليه السلام: يا ربّ إنك قد سمعت مقالة بني إسرائيل وأنت أعلم بصلاحهم، فأوحى الله جلّ جلاله إليه: يا موسى أسألني ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم، فعند ذلك قال موسى عليه السلام: (**رَأَيْتِي أَنْظُرُ إِلَيْكَ قَال لَنْ تَرْتِي وَلَكِنْ أَنْظُرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ**) وهو يهوي (**فَوَسْوَسَ تَرْتِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ**) بآية من آياته (**جَعَلَهُ دَكًّا وَخَجَّرَ مُوسَى صَبْعًا فَلَمَّا أَفْبَاقَ قَال سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ**) يقول: رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي (**مَنَا**)

وَأَمَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (١) مِنْهُمْ بِأَنَّكَ لَا تُرَى»، فقال المأمون: لله دُكُّ يا أبا الحسن (٢).

ثانياً: مناظرته عليه السلام حول الإمامة

تمثل الإمامة معلماً أساسياً من معالم الإسلام، التي بينها رسول الله ﷺ للأمة إكمالاً للدين وإتماماً للنعمة. وهي تمثل - من جانب آخر - لبنة أساسية في بنية الفكر الإسلامي عامة والشيعي على وجه الخصوص، لا سيما إذا ما عرفنا بان التشيع هو تجسيد لمبدأ الإمامة.

وفي ظل التجميد المتعمد لإطروحة الإمامة، حاول الأئمة عليهم السلام الاحتفاظ بهذه الإطروحة حية في وعي الأمة ولو على المستوى النظري، لأن غيابها من ذاكرة الأمة تأكيد لحالة المصادرة وإلغاء لهذا المفهوم الهام من منظومة الأفكار والمفاهيم المتحركة في واقع التصور الإسلامي.

وكنا قد ذكرنا في الفصل الثالث موقف الإمام الرضا عليه السلام من الإمامة، وبهنا هنا أن نستشهد بنماذج من مناظراته حول موضوع الإمامة كشاهد على ذلك.

وصف الزّيان بن الصلت مجلساً للمأمون بمرور، وقد اجتمع فيه جماعة من علماء أهل العراق وخراسان، وتطهر الحديث لعلّ محاور تتعلّق بإمامة أهل البيت عليهم السلام وفضائلهم، هي:

(١) سورة الأعراف: ٧ / ١٤٣.

(٢) كتاب التوحيد، الصدوق: ١٢١، ح ٢٤، باب (٨).

١ - الفرق بين العترة والأمة

دار الحوار حول تفسير بعض الآيات القرآنية التي تدل على أفضلية ومكانة أهل البيت عليه السلام وبالتالي أهليتهم للإمامة، ولكنها فسّرت على غير معناها الحقيقي، وضُرب حولها سور هائل من التعقيم، فأزال إمامنا سوء الفهم الحاصل، وحوّد المعنى المراد. والملاحظ أنه استعمل المنهج «النقلي» معتمدا على القرآن والسنة، ومستعملا في التفسير منهج «التفسير الموضوعي» وليس المنهج التحزبي الذي ينظر للآية بمعزل عن الآيات الأخرى، وقد مر نص هذا الحوار في الفصل الثالث، وعرفنا كيف احتج الإمام عليه السلام بنصوص كثيرة من القرآن الكريم تلاها على مسامع المأمون ومن كان معه بكل بسالة ولم يأبه بالمأمون ولا بحاشيته أو مخالفته في العقيدة.

٢ - استعراض الآيات الدالة على اصطفاء الأئمة عليهم السلام

ثم طلب منه العلماء أن يستشهد بآيات تدل على اصطفاء الله تعالى لآل البيت عليه السلام في الكتاب، فذكر اثنتا عشرة آية تدل على ذلك: منها (آية الإنذار) و (آية التطهير) و (المباهلة) وعند آية (المودّ في القرى) قال: « وهذه خصوصية للنبي ﷺ إلى يوم القيامة وخصوصية لآل دون غيرهم، وذلك ان الله عزّ وجلّ حكى في ذكر نوح في كتابه: (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنِّي أَنجِي إِلَيْكُمْ عَلَى اللَّهِ ..)^(١) وحكى عزّ وجلّ عن هود انه قال: (يَا قَوْمِ)

(١) سورة هود: ١١ / ٢٩.

لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ أَجْرِي إِلاَّ عَلَى الْكُفْرِ فَطَرَنِي أَجْلاً تَعْقِلُونَ (١) وقال عزَّ جَل لِنبيه محمد ﷺ: (قِيلَ) يا محمد (لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَبِوَّةَ فِي الْقَبْرِ) (٢) ولم يفرض الله تعالى مودَّتهم إلاَّ وقد علم انهم لا يرتدون عن الدين أبدا ولا يرجعون إلى ضلال أبدا .. فأبي فضيلة وأي شرف يتقدم هذا أو يدانيه؟ « (٣) .

والمفارقة العجيبة أنه في الوقت الذي يقرع فيه الإمام عليّ أَسْمَاعَهُمْ بهذه الاستدلالات والشواهد القرآنية البديعة التي لا ينكرها إلاَّ أعمى أو معاند، قالت العلماء: يا أبا الحسن، هذا الشرح وهذا البيان لا يوجد إلاَّ عندكم معاشر أهل بيت رسول الله ﷺ ! فقال: « ومن ينكر لنا ذلك ورسول الله يقول: أنا مدينة العلم وعلي بايها فمن أراد المدينة فليأتها من بايها؟ ففيما أوضحنا وشرحنا من الفضل والشرف والتقدمة والاصطفاء والطهارة ما لا ينكره إلاَّ معاند لله عزَّ جَل « (٤) .

٣ - مكانة آل محمد ﷺ عند ربهم عزَّ جَل

من اللفظات القرآنية البديعة التي تكشف عن عمق إمامنا المعرفي بالقرآن وكونه أحد تراجمته، جوابه البديع للمأمون عندما طلب منه أن يستدل على مكانة الآل في القرآن حتى يكون أكرم للخصم مما تقدم، فقال

(١) سورة هود: ١١ / ٥١ .

(٢) سورة الشورى: ٤٢ / ٢٣ .

(٣) عيون أخبار الرضا عليّ: ١: ٢١٧، ح ١، باب (٢٣) .

(٤) عيون أخبار الرضا عليّ: ١: ٢١٧، ح ١، باب (٢٣) .

أبو الحسن عليه السلام: « نعم، أخبروني عن قول الله عزّ جل: (يَسَاءَ * وَلَقَبْرَنَ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (١) فمن عني بقوله يس؟ ». قال العلماء: يس محمد ﷺ لم يشك فيه أحد.

قال أبو الحسن: « فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ جَلَّ أَعْطَى مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ مِنْ ذَلِكَ فَضْلًا لَا يَبْلُغُ أَحَدٌ كُنْهَ وَصْفِهِ إِلَّا مَنْ عَقَلَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ جَلَّ لَمْ يُسَلِّمْ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: (سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ) (٢) وقال: (سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ) (٣) وقال: (سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ) (٤) ولم يقل: سلام على آل نوح، ولم يقل: سلام على آل إبراهيم، ولا قال: سلام على آل موسى وهارون، وقال عزّ جل: (سَلَامٌ عَلَى لِيْلِ يَاسِينَ) (٥) يعني آل محمد صلوات الله عليهم ». «

فقال المأمون: لقد علمت ان في معدن النبوة شرح هذا وبيانه (٦).

٤ - الأئمة عليهم السلام هم أهل الذكر:

ضمن سياق الحوار الذي دار في هذا المجلس كان حديث الإمام ينساب كنهه متدفق، فتطرق معهم إلى مفهوم «أهل الذكر» ولفت نظرهم

(١) سورة ياس: ٣٦ / ١ - ٤ .

(٢) سورة الصافات: ٣٧ / ٧٩ .

(٣) سورة الصافات: ٣٧ / ١٠٩ .

(٤) سورة الصافات: ٣٧ / ١٢٠ .

(٥) سورة الصافات: ٣٧ / ١٣٠ .

(٦) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢١٤، ح ١، باب (٢٣).

الى هذا المفهوم الهام الذي أريد له أن يغيب عن الأذهان ويمحى عن الذاكرة ويُسدل عليه ستار النسيان، من خلال التفسير القاصر، قال لهم: « فنحن أهل الذكر فاسألونا إن كنتم لا تعلمون ». »

فقال العلماء: إنما عنى الله بذلك اليهود والنصارى.

فقال أبو الحسن عليه السلام: « سبحان الله! وهل يجوز ذلك؟ يدعوننا إلى دينهم، ويقولون: انه أفضل من دين الإسلام! ». »

فقال المأمون: فهل عندك في ذلك شرح بخلاف ما قالوه يا أبا الحسن؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: « نعم، الذكر رسول الله، ونحن أهله، وذلك بين في كتاب الله عزّ جل حيث يقول في سورة الطلاق: (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَبُّوهُ لَا يَنْتَلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ) (١) فالذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن أهله » (٢).

وفي نهاية المطاف اعترف المأمون ومن معه من العلماء بمقدرة الإمام العلمية وأنه بحر زاخر، وأقرّ بأفضلية أهل البيت عليهم السلام، وقالوا: « جزاكم الله أهل بيت نبيكم عن هذه الأمة خيرا، فما نجد الشرح والبيان فيما اشتبه علينا إلا عندكم » (٣).

٥ - في الواقع التاريخي للخلافة

من المعروف أن الإمامة كانت - ومازالت - موضوعا ساخنا يثير

(١) سورة الطلاق: ٦٥ / ١٠ - ١١.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢١٦، ح ١، باب (٢٣).

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٠٧ - ٢١٧، ح ١، باب (٢٣)، وأمالي الشيخ الصّديق: ٦١٥، المجلس (٧٩).

الجدل وتختلف حوله الأقوال وتباين فيه وجهات النظر، وقد اعتبر البعض بأن ما حدث في السقيفة قد تجاوزه التاريخ وغدا حقيقة واقعة ليس من المناسب أن تمسّها يد المراجعة والتقييم، ولكن الرؤية الموضوعية تقرّ بأن هناك أحداثا تشكل انعطافة مهمة على صعيد التاريخ الإنساني تبقى تداعياتها حية مهما طالّت الفترة الزمنية، وموضوع الإمامة واحد من هذه المواضيع الجسام التي ما زالت تبعات ما أحاط بها من أحداث تنعكس سلبا على كافة الاصعدة الإسلامية: الفكرية والسياسية والاجتماعية.

والمعالجة الجادة ينبغي أن تنطلق من التشخيص الدقيق لأسباب المشكلة، وهنا نجد أن إمامنا الرضا عليه السلام قد وضع إصبعه على موضع الداء، فالإمامة شغلها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من لم يكن لها أهلا، ثم لم يحدث أن تدارك المسلمون ذلك، بل أمضوه حتى تلاحقت فصوله الأخرى، فتراكم الخطأ.

وصف محمد بن يحيى الصولي مجلسا للمأمون بحضرة الإمام الرضا وثلة من كبار أهل العلم الذين دعاهم المأمون لمناظرة الإمام عليه السلام، فأداروا أمر الإمامة، فتكلم متكلمهم يحيى بن الضحاك السمرقندي فقال: نتكلم في الإمامة، كيف ادعيت لمن لم يؤم وتركت من أم ووقع الرضا به؟

فقال له: « يا يحيى أخبرني عن من صدق كاذبا على نفسه، أو كذب صادقاً على نفسه، أكون محققاً مصيباً أو مبطلاً مخطئاً؟ » فسكت يحيى، فقال له المأمون: أجبه، فقال: يعفني أمير المؤمنين من جوابه، فقال المأمون: يا أبا الحسن عرفنا الغرض في هذه المسألة.

فقال عليه السلام: « لا بد ليحيى من أن يخبر عن أئمته؛ كذبوا على أنفسهم أو

صدقوا؟ فإن زعم أنهم كذبوا، فلا أمانة لكذاب، وإن زعم أنهم صدقوا، فقد قال أولهم: وليتكم ولست بخيركم، وقال تاليه: كانت بيعته فلتة، فمن عاد لمثلها فاقتلوه، فوالله ماضي لمن فعل مثل فعلهم إلا بالقتل، فمن لم يكن بخير الناس، والخيرية لا تقع إلا بنعوت منها: العلم، ومنها الجهاد، ومنها سائر الفضائل وليست فيه، ومن كانت بيعته فلتة يجب القتل على من فعل مثلها، كيف يقبل عهده إلى غيره وهذه صورته؟! ثم يقول على المنبر: إن لي شيطانا يعتريني، فإذا مال بي فقوموني، وإذا أخطأت فارشدوني، فليسوا أئمة بقولهم، إن صدقوا، أو كذبوا، فما عند يحيى في هذا جواب .«

فعجب المأمون من كلامه، وقال: يا أبا الحسن ما في الأرض من يحسن هذا سواك (١). والملفت للنظر أن إمامنا عليه السلام في هذا الحوار قد اتبع منهجا فريدا، فلم يستعمل في مناظرته الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية الكثيرة التي يمكن الاستدلال بها على إمامة أهل البيت عليهم السلام، فلعله يعلم بأن الغوص في هذا قد يؤدي إلى تجريدات فكرية لا يلتزم القوم بمدلولاتها، لذلك درس مسألة الإمامة في إطارها التاريخي محاولا إلقاء الضوء على الحقائق كما هي من خلال أقوال أقطاب السقيفة بدون تأويل أو تفسير، فكثيرا ما يتأثر الناس بالتفسير الذي يأتيهم لحدث أكثر ما يتأثرون بالحدث نفسه، وهنا وضعهم الإمام عليه السلام وجها لوجه أمام الحدث، عارضا بأمانة تصريحات القوم التي أدلوا بها في قلب الحدث ودلالاتها؛ وحينئذ يكتشف كل منصف الحقيقة بنفسه.

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٥٥، ح ١، باب (٥٧).

ثالثاً: مناظرته عليه السلام حول البداء

البداء من المسائل المعقدة التي كثر الجدل والنزاع حولها قديماً وحديثاً بين الفلاسفة والعلماء من السنة والشيعة، ولكل من الفريقين رأي واتجاه. فما هو البداء؟

البداء - لغة: ظهور الشيء بعد خفائه .. وبدا له في هذا الأمر بداء، أي: تغير رأيه عمماً كان عليه بعد أن ظهر له فيه رأي آخر^(١).

وقد اتهم الشيعة بنسبة الجهل إلى الله تعالى استناداً إلى المعنى اللغوي المتقدم للبداء، والحال أن الشيعة يتبرأون من هذه التهمة الشنيعة، وهم يكفرون كل من ينسب الجهل إلى الله تعالى، ويرون بأنه تعالى لا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض، وأنه ليس محلاً للحوادث والتغيرات، لاستلزام ذلك خروجه - عزّ وجلّ - عن حضيرة الوجوب إلى الإمكان، زد على ذلك أن الشيعة متفقون على أن الله تعالى عالم بالجزئيات كعلمه بالكليات، وعلمه بالمعوم كعلمه بالموجود، وآراء الشيعة هذه مدونة في عشرات الكتب والرسائل والبحوث تحت عنوان «البداء»^(٢).

والحال أن حقيقة البداء عندهم ليس ظهور الأمر لله تعالى بعد أن كان خافياً عليه، تعالى الله عزّ وجلّ عن ذلك علواً كبيراً بل هو ظهور أمر لنا منه تعالى لم يكن مرتقباً، يعد مساوقاً لتغيير القضاء كما هو عند

(١) لسان العرب / ابن منظور ١٤: ٦٥، مفردات الراغب: ٤٠، مادة (بدا).

(٢) أنظر: الذريعة إلى تصانيف الشيعة / الطهراني ٣: ٥١ - ٥٧ و ١٣١ - ١٥١.

الجمهور، وعليه فالبداء عند الشيعة الإمامية هو البداء الواقع في (التكوينيات) كالنسخ المتعلق ب- (التشريعات)، فكما أن النسخ في التشريعات أمر جائز وسائغ، كذلك البداء في التكوينات أمر سائغ وممكن وجائز.

ثم إن البداء يكون في القضاء الموقوف المعبر عنه ب- (لوح المحو والإثبات) والالتزام بجواز البداء فيه لا يستلزم نسبة الجهل إلى الله سبحانه، وليس في هذا الالتزام ما يناهز عظمته وجلاله (١).

وهناك آيات قرآنية كثيرة تثبت بأن الله تعالى مبسوط اليدين في مجال التكوين، يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، ويثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء، منها: قوله تعالى: (يَمَجُّوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (٢).

وتوجد أحاديث في صحاح السنة تشير إلى حصول المحو والإثبات الإلهيين، وإمكانية التغيير والتبديل فيما كتبه الله وقدره وفقا لمشيئته وإرادته تعالى، منها ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ في تفسير قوله تعالى: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) (٣) أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يحدث من أمره ما يشاء، وإنَّ مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة» (٤).

وبإسناد عن أنس بن مالك أن نبينا ﷺ لما صعد إلى السماء واجتمع

(١) أنظر: دفاع عن الكافي / السيد ثامر العميدي ٢: ٣٣ وما بعدها.

(٢) سورة الرعد: ١٣ / ٣٩.

(٣) سورة الرحمن: ٥٥ / ٢٩.

(٤) صحيح البخاري ٩: ١٨٧ - باب: قول الله تعالى: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ).

بالأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، نصحه موسى عليه السلام بأن يراجع ربه لتخفيف الصلاة عن أمته فيما فرضه الله على أمته من خمسين صلاة في كل يوم، وبعد أن راجع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ربه عدة مرات حسب نصيحة موسى عليه السلام خفف الله تعالى الصلاة من خمسين إلى خمس صلوات ^(٣).

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى بدا لله أن يبتليهم...» ^(٤) ثم ساق الخبر (الصحيح). ومن هذه الأحاديث يظهر بوضوح دخول فكرة البداء عند أقطاب المحدثين ورواة المسلمين في دائرة المحو والاثبات المصحح بما في القرآن الكريم، لكن المؤسف حقاً أنّها قد استغلت من قبل خصوم الشيعة للتشنيع والتشهير.

ويقتضي التنويه بأن «مصالح العباد متوقفة على القول بالبداء، إذ لو اعتقدوا أنّ كل ما قُدَّ في الأزل فلا بُدَّ من وقوعه حتماً لما دعوا الله تعالى في شيء من مطالبهم، وما تضرّعوا إليه، وما استكانوا لديه، ولا خافوا منه، ولا رجعوا إليه، وإذا انتفت هذه الأمور فلا يبقى مجال للصدقة وصلة الرحم، وبر الوالدين، وغير ذلك من صالح الأعمال.. أضف إلى ذلك أن القول بالبداء هو الاعتراف الصريح بأن العالم كله تحت سلطان الله وقدرته في حدوده وبقائه، وان إرادة الله نافذة في الأشياء

(١) أنظر: صحيح البخاري ١: ٩٨، كتاب الصلاة، وأيضاً ٩٦: ١٨٢، باب قوله تعالى: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا).

(٢) صحيح البخاري ٤: ٢٠٨ - ٢٠٩، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

أزلا وأبدا»^(١). من هنا دافع إمامنا الرضا عليه السلام عن مسألة البداء، وأولاها عناية خاصة وأعتبرها من المسائل الأساسية التي قامت عليها الأديان السماوية.
 وجددير بالذكر هو أن أول من نفى القول بالبداء هم اليهود الذين قالوا - لعنهم الله -:
 إن يد الله مغلولة! غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا. بل هو سبحانه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده
 أم الكتاب.

ومما يكشف عن اهتمام الإمام الرضا عليه السلام بمسألة البداء حواراته ومناظراته مع أهل
 الإسلام، ومن أبرز الشواهد على ذلك مناظرته مع سليمان المروزي متكلم خراسان الذي
 قدم على المأمون فأكرمه ووصله، ثم طلب منه أن يناظر الإمام عليه السلام.
 وكان عمران الصابي الذي أسلم ببركة إمامنا الرضا عليه السلام وأصبح من تلاميذه قد التقى
 بالمروزي فتحاورا حول البداء وكان المروزي قد أنكره، فقال المأمون: يا أبا الحسن ما تقول
 فيما تشاجرا فيه؟

قال عليه السلام: « وما أنكرت من البداء يا سليمان، والله عزوجل يقول: (وَأَلَّا يَدُكُرَ الْإِنْسَانَ
 نَأَى لِقَنَانِهِ مِنْ بَيْنِ أُمَّمٍ بِكَ شَبِيحًا)^(٢) ويقول عزوجل: (وَهُوَ الْكَافِرُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)^(٣)
 ويقول: (بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ مَلَأَهُ نُورًا)^(٤) ويقول عزوجل: (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)^(٥)
 ويقول: (بَلَّغَ خَلْقَ)

(١) دفاع عن الكافي / السيد ثامر العميدي ٢: ١٦٠ وما بعدها.

(٢) سورة مريم: ١٩ / ٦٧.

(٣) سورة الروم: ٣٠ / ٢٧.

(٤) سورة البقرة: ٢ / ١١٧، وسورة الأنعام: ٦ / ١٠١.

(٥) سورة فاطر: ٣٥ / ١.

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (١) ويقول عزوجل: (وَخَيْرُ نَاسٍ مَّرْجُوًّا لَأَمْرَ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ مِمَّا يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ) (٢) ويقول عزوجل: (وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ) (٣)!

قال سليمان: هل رويت فيه شيئا عن آبائكم قال: نعم، رويت عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: « إنَّ لله عزوجلَّ علمين: علما مخزوننا مكنونا لا يعلمه إلا هو، ومن ذلك يكون البداء، وعلما علمه ملائكته ورُسُلُه، فالعلماء من أهل بيت نبيِّه يعلمونه ».

قال سليمان: أحبُّ أن تنزعه لي من كتاب الله عزوجلَّ.

قال عليه السلام: « قول الله عزوجلَّ لنبيه ﷺ: (فَتَبَوَّأَ عِندَهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَكْلُومٍ) (٤) أراد هلاكهم ثم بدا لله - أي: عن علم - فقال: (وَكُرِّفَإِ الدُّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) (٥) ».

قال سليمان: زدني جُعلت فداك، قال الرضا عليه السلام: « لقد أخبرني أبي عن آباءه أنَّ رسول الله ﷺ قال: إنَّ الله عزوجلَّ أوحى إلى نبي من أنبيائه: أن أخبر فلان الملك أنني متوفيه إلى كذا وكذا، فقال: يا ربِّ أجلي حتى يشبَّ طفلي وأقضي أمري، فأوحى الله عزوجلَّ إلى ذلك النبي أن أنت فلان الملك فأعلمه أنني قد أنسيت في أجله وزدت في عمره خمس عشرة سنة، ثم أوحى الله عزوجلَّ إليه: إنَّما أنت عبد مأمور فأبلغه ذلك، والله لا يسأل عما

(١) سورة السجدة: ٣٢ / ٧.

(٢) سورة التوبة: ٩ / ١٠٦.

(٣) سورة فاطر: ٣٥ / ١١.

(٤) سورة الذاريات: ٥١ / ٥٤.

(٥) سورة الذاريات: ٥١ / ٥٥.

يفعل» (٣).

واستمر الإمام عليّ في إيراد الأدلة على جواز البداء حتى أذعن سليمان المروري للمأمون، قائلاً: يا أمير المؤمنين لا أنكر بعد يومي هذا البداء ولا أكذب به إن شاء الله (٤). ثم تطرقا في المناظرة إلى مواضيع أخرى منها ما كان حول الإرادة، وهل هي اسم أم صفة، وهل يعلم الله تعالى جميع ما في الجنة والنار، وما إلى ذلك إلى أن انقطع سليمان عن الإجابة، وعندها قال المأمون: «يا سليمان هذا أعلم هاشمي». وهكذا نجد أن إمامنا عليّ قد استطاع الصمود وسط العواصف الفكرية التي أثارها المأمون من حوله بما امتلكه من عمق علمي وبصيرة ثاقبة. وهو في الوقت نفسه كان يدافع - بقوة - عن العقيدة الإسلامية، يذب عنها حملات المشككين والمنكرين، ويصحح رؤى بعض علماء المسلمين، وعموما فقد أحدث هزة عنيفة في قناعات العديد من الشخصيات التي ناظرها، وقد لاحظنا كيف أن البعض منهم قد اعترف بقصوره وخطأ تصوراته، بينما اكتفى من لم يمتلك الشجاعة الكافية ومن لم يبصر نور الحقيقة بالسكوت.

(١) التوحيد / الصدوق: ٤٤١، باب (٦٦).

(٢) التوحيد / الصدوق: ٤٤١، باب (٦٦).

المبحث الثالث: أدوار أخرى في خدمة الفكر والعقيدة

إذا ما حاولنا تتبع أبرز المعطيات الإيجابية التي قدمها الإمام الرضا عليه السلام للفكر الإسلامي والعقيدة الإسلامية، نجدها كثيرة جدا، ومع هذا يمكن الإشارة إلى بعضها بالعناوين التالية:

أولا: إيجاد الحلول الشافية في مسائل الخلاف

نظرا لما امتاز به الإمام الرضا عليه السلام من عمق علمي فقد أعطى قواعد فكرية تعصم من تمسك بها من الوقوع في مهاوي الضلال أو الانحراف العقيدي وخاصة في القضايا العويصة أو المسائل الخلافية التي تثير الجدل بين الفرق الإسلامية، وعلى سبيل الاستشهاد لا الحصر، قد ذكر عند الإمام الرضا عليه السلام الجبر والتفويض، فقال: « ألا أعطيكم في هذه أصلا لا تختلفون فيه ولا يخاصمكم عليه أحد إلا كسرتموه؟ » قلنا: إن رأيت ذلك.

فقال عليه السلام: « إن الله عزَّوجلَّ لم يطع بإكراه، ولم يعص بغلبة، ولم يهمل العباد في ملكه، وهو المالك لما ملكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه، فإن ائتمر العباد بالطاعة لم يكن الله عنها صادًا، ولا منها مانعا، وإن ائتمروا بمعصية فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل، فإن لم يحل وفعلوه فليس هو الذي أدخلهم فيها - ثم قال عليه السلام - من يضبط حدود هذا الكلام فقد خصم

من

خالفه « (١) .

ثانياً: تصحيح المفاهيم

قاد إمامنا عليه السلام حملة تصحيحية واسعة على الصعيد الفكري، كان لها الأثر البالغ في فضح وتعرية المفاهيم المغلوطة، ومواجهة السذاجة الفكرية، وهنا نود التعجيل بإيراد الشواهد على ذلك:

دخل على علي بن موسى الرضا عليه السلام قوم من الصوفية فقالوا: إن أمير المؤمنين المأمون لما نظر فيما ولاه من الأمور فراكم أهل البيت أولى من قام بأمر الناس، ثم نظر في أهل البيت فراك أولى بالناس عن كل واحد منهم، فرد هذا الأمر إليك، والإمامة تحتاج إلى من يأكل الخشن ويلبس الخشن ويركب ويعود المريض ويشيع الجنائز، وكان الرضا متكئاً فاستوى جالساً، ثم قال: « كان يوسف بن يعقوب نبياً فلبس أقبية الديداج المزركشة بالذهب والقباطي المنسوجة بالذهب وجلس على متكآت آل فرعون، وحكم وأمر ونهى، وإنما يراد من الإمام قسط وعدل، إذا قال صدق وإذا حكم عدل وإذا وعد أنجز، إن الله لم يحرم ملبوساً ولا مطعوماً » وتلا قوله: (قُلْ مَن جَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَلَطَيْبَاتٍ مِّنَ النَّارِ) (١) (٢) .

وبهذا تلقى المتصوفة درساً بليغاً في الزهد حرباً بأن يكون موعظة

(١) كشف الغمة ٣: ٨٢، باب: ذكر طرف من دلائله وأخباره.

(٢) سورة الأعراف: ٣٢ / ٧.

(٣) الفصول المهمة / ابن الصباغ المالكي: ٢٥١، الفصل الثامن.

لادعاء الزهد والزاهدين معا. علما بأن إمامنا الرضا عليه السلام كان من الزاهدين، كان جلوسه في الصيف على حصير، وفي الشتاء على مسح^(٣).

ومن الشواهد الأخرى التي نستدل من خلالها على حملة تصحيح المفاهيم هذه، نظرة الإمام عليه السلام العميقة لمفهوم «الجود والبخل» علما بان الجود يمثل أحد الخصال العربية الأصيلة، التي يتباهى بها البعض دون أن يعرف أبعادها وما تنطوي عليه من بُعد عبادي:

سأله رجل وهو في الطواف: أخبرني عن الجواد؟

فقال: « إن لكلامك وجهين، فإن كنت تسأل عن المخلوق، فإن الجواد هو الذي يؤدي ما افترض الله عليه، والبخيل من بخل بما افترض الله عليه. وان تكن تعني الخالق فهو الجواد ان أعطى، وهو الجواد إن منع، إن أعطى عبدا أعطاه ما ليس له، وان منع منع ما ليس له »^(١).

وقد شملت حملة التصحيح هذه بعض المفاهيم ذات العلاقة بطبائع الناس كمفهوم «الحمية»؟

عن إسماعيل الخراساني، عن الرضا عليه السلام قال: « ليس الحمية من الشيء تركه، إنما الحمية من الشيء الإقلال منه »^(٢).

ثالثا: كشف التحريف في الحديث

لقد قام الرضا عليه السلام بدور مثير^٣ في كشف وتعرية التحريف الذي

(١) أنظر: الفصول المهمة: ٢٤٨، الفصل الثاني.

(٢) كشف الغمة ٣: ٨١، باب: ذكر طرف من دلائله وأخباره.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٧٦، ح ٧٢، باب (٢٨).

حصل في الأحاديث، والذي أثر بشكل مباشر على العقيدة الإسلامية وأفقدتها نقاءها وأوقع الالتباس في فهم النصوص، ولسنا بحاجة هنا لاستعراض جميع مظاهر التحريف، ولكن يكفينا الاستشهاد على ذلك بما ورد عن ابراهيم بن محمود، قال: قلت للرضا عليه السلام: يا بن رسول الله ما تقول في الحديث الذي يرويه الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ان الله تبارك وتعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا؟^(١)

قال عليه السلام: « لعن الله المحرّفين للكلم عن مواضعه، والله ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كذلك، إنّما قال صلى الله عليه وآله وسلم: ان الله تعالى يُنزل ملكا إلى السماء الدنيا كل ليلة في الثالث الأخير وليلة الجمعة في أول الليل، فيأمره فينادي: هل من سائل فاعطيه؟ هل من تائب فاتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ يا طالب الخير أقبل، يا طالب الشر أقصر، فلا يزال ينادي بذلك حتى يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر عاد إلى محله من ملكوت السماء. حدثني بذلك أبي عن جدي عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم »^(٢).

والملاحظ أن تأكيد الإمام عليه السلام على سند هذا الحديث - وأنه عن أبيه وأجداده عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - جاء في مقابل من يسند كذبا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه قال بخلاف ذلك.

ومن الشواهد على تصدي الإمام عليه السلام لهذا اللبّون من التحريف الذي طال الأحاديث، ما جاء عن الحسين بن خالد، قال: قلت للرضا عليه السلام:

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة، أنظر: صحيح البخاري ١: ٣٨٤، ح ١٠٩٤، باب (١٤) كتاب

التهجد

(٢) كشف الغمة ٢: ٧٨ - ٧٩، باب: ذكر طرف من دلائله وأخباره.

يا بن رسول الله إن قوما يقولون: ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: « إن الله خلق آدم على صورته » فقال: قاتلهم الله! لقد حذفوا أول الحديث، إن رسول الله مر برجلين يتسابقان، فسمع أحدهما يقول لصاحبه: قبح الله وجهك ووجه من يشبهك فقال له صلى الله عليه وآله: « يا عبد الله لا تقل هذا لأخيك! فإن الله عز وجل خلق آدم على صورته » ^(١).

رابعاً: التأويل السليم لما دل بظاهرة على التشبيه والتجسيم:

من المعلوم أن هناك فريقاً من المسلمين قد جمد على ظواهر القرآن، الأمر الذي أساء إلى العقيدة الإسلامية، وخاصة في مسألة التوحيد التي تعتبر حجر الزاوية فيها، فقد أُحْجِرَ الجمود على ظواهر الألفاظ إلى التشبيه والتجسيم تعالى الله عن ذلك، فتصوروا مثلاً أن لله يداً، وعرشاً يجلس عليه، وأن بالإمكان النظر إليه، وأن له مكاناً يُجَبَّ عنه الكافرون، وأنه يتحرك ويحيى مع الملك، وما إلى ذلك من مزاعم لا تستقيم مع سكة العقل السوية، وتتنافى مع تنزيه الله تبارك وتعالى.

ومن هنا قام إمامنا الرضا عليه السلام بواجبه المقدس وأزاح غبش العيون لترى حقائق القرآن صافية، مؤكداً أن لتلك الظواهر القرآنية معنى تكشف عنه آيات أخر، وثابت العقيدة أيضاً، ومن الشواهد على ذلك: قال الرضا عليه السلام: في قول الله عز وجل: (**وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَّاهِبَةٌ*** **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**) ^(١) قال: يعني - مشرقة - تنتظر ثواب ربها ^(٢).

(١) الاحتجاج / الطبرسي ٢: ١٩٢.

(٢) سورة القيامة: ٧٥ / ٢٢ - ٢٣.

(٣) الاحتجاج ٢: ١٩١، أنظر: أجوبة الإمام عليه السلام على أسئلة أبي الصلت الهروي.

ويؤكد هذا المعنى ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام لأحد الزنادقة عندما سأل الإمام عليه السلام قائلاً:
أحد الله يقول: (**وَجُوهُ يَوْمَتِنَا ضَرِيحٌ * إِلَى رَبِّهَا نَبَاطِيحٌ**) وأجده يقول: (**لَا تُدْرِكُهُ
الْإِبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْإِبْصَارَ**) ^(١).

فقال عليه السلام: « **إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُؤْمَرُونَ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَمَنْ هَذَا الْمَقَامَ يَنْظُرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ كَيْفَ
يُشِبُّهُمْ ... أَي: النَّظَرُ إِلَى مَا وَعَدَهُمْ - عَزَّوَجَلَّ - فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِلَى رَبِّهَا نَبَاطِيحٌ) .
وَالنَّاطِرَةُ: الْمُنْتَظَرَةُ .** » ثم قال عليه السلام: « **أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَى: (يَكْفُرُونَ بِالْمُرْسَلِينَ)**
^(٢) **أَي مُنْتَظَرَةً** » ^(٣).

وأيضاً: سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: (**وَجَاءَ رُتُكٌ مَّوَلَّيْكَ صَبَّأً صَبَّأً**) ^(٤) فقال: « **إِنَّ اللَّهَ
لَا يُوصَفُ بِالْمَجِيءِ وَالذَّهَابِ وَالْإِنْتِقَالِ، إِنَّمَا يَعْنِي بِذَلِكَ: وَجَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ** » ^(٥) .
وسئل عن قوله عَزَّوَجَلَّ: (**.. كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّ-حُجُوتُونَ**) ^(٦) فقال: « **إِنَّ
اللَّهَ تَعَالَى لَا يُوصَفُ بِمَكَانٍ يَحِلُّ فِيهِ فَيُحْجَبُ عَنْ عِبَادِهِ، وَلَكِنَّهُ يَعْنِي: عَنْ ثَوَابِ رَبِّهِمْ مُحْجُوبِينَ**
» ^(٧) .

(١) سورة الأنعام: ٦ / ١٠٣ .

(٢) سورة النمل: ٢٧ / ٣٥ .

(٣) التوحيد / الصدوق: ٢٦١ / ٥ .

(٤) سورة الفجر: ٨٩ / ٢٢ .

(٥) الاحتجاج ٢: ١٩٣ .

(٦) سورة المطففين: ٨٣ / ١٥ .

(٧) الاحتجاج ٢: ١٩٣ .

خامسا: بيان سر أخبار الغلو والتقصير ومصدرها

ليس خافيا بأن أهل البيت عليه السلام هم رموز العقيدة وأعلامها، وبعد أن فشل الأعداء في النيل من العقيدة أخذوا يثيرون الشبهات والشكوك حول رموزها، بأساليب وطرق مختلفة، مظهر من خلال وضع الأحاديث التي ينم ظاهرها عن إظهار فضائل آل البيت ولكنها في الحقيقة تُسيء إليهم بما تتضمنه من غلو أو تقصير في أمرهم، أو التصريح بمثالب أعدائهم بأسمائهم بغية تأجيج نار الفتنة ورفع وتيرة العداة معهم.

والإمام الرضا عليه السلام قد كشف عن هذه الأساليب التي يراد منها الإساءة إلى أهل البيت عليه السلام يتضح لنا ذلك من هذه الرواية: قال ابراهيم ابن أبي محمود، قلت للرضا عليه السلام يابن رسول الله، إن عندنا أخبارا في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام وفضلكم أهل البيت، وهي من رواية مخالفيكم ولا نعرف مثلها عندكم، أفنديين بها؟

فقال: « يا بن أبي محمود، لقد أخبرني أبي، عن أبيه، عن جدّه عليه السلام: ان رسول الله ﷺ قال: من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فان كان الناطق عن الله عزوجل فقد عبد الله، وان كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس ..

يا بن أبي محمود، إن مخالفينا وضعوا أخبارا في فضائلنا وجعلوها على ثلاثة أقسام: أحدها الغلو، وثانيها التقصير في أمرنا، وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلو فينا كفروا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا، وقد قال الله عزوجل: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ

نِ وَنِ لِلَّهِ شَهَادَةُ اللَّهِ دَوَّاعِرَ عِلْمٍ (١).

يابن أبي محمود، إذا أخذ الناس يمينا وشمالا فالزم طريقتنا، فانه من لزمنا لزمناه، ومن فارقتنا فارقتنا، ان أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان أن يقول للحصاة: هذه نواة ثم يدين بذلك ويبرء ممن خالفه، يابن أبي محمود احفظ ما حدثتك به، فقد جمعت لك خير الدنيا والآخرة « (٢).

وهكذا نجد إمامنا يقوم بتعزية وفضح أساليب أعداء أهل البيت عليهم السلام وتقويم اعوجاج الأذهان وقشع غيوم الشبهات المثارة.

ومن الشواهد ذات الدلالة على ذلك ما روي عن محمد بن زيد الطبري، قال: كنت قائما على رأس الرضا عليه السلام بخراسان، وعنده جماعة من بني هاشم منهم إسحاق بن العباس بن موسى .. فقال عليه السلام له: « يا اسحاق بلغني أنكُم تقولون: إنا نقول: إنَّ الناس عبيد لنا! لا وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما قلته قط، ولا سمعته من أحد من آبائي، ولا بلغني عن أحد منهم قاله، ولكننا نقول: النَّاسُ عبيد لنا في الطاعة، مدال لنا في الدِّين، فليبلغ الشاهد الغائب « (٣).

سادسا: الآثار العلمية المنسوبة إلى الإمام الرضا عليه السلام

من المبحث السابق اتضح لنا مقدار الجهد العلمي الكبير الذي بذله إمامنا عليه السلام من أجل الذود عن العقيدة والفكر الإسلامي، وكان

(١) سورة الأنعام: ٦ / ١٠٨.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٧٢، ح ٦٣، باب (٢٨).

(٣) أمالي الشيخ المفيد: ٢٥٣، المجلس الثلاثون.

من نتيجة ذلك ظهور بعض الآثار العلمية المنسوبة إلى إمامنا الرضا عليه السلام ، وقد أثير الجدل والنقاش بين العلماء حول صحة نسبة بعضها إليه عليه السلام ، وهي:

١ - كتاب الفقه الرضوي.

٢ - الطب الرضوي أو (الرسالة الذهبية).

٣ - الصحيفة الرضوية.

٤ - أجوبة مسائل ابن شاذان.

٥ - العلل لابن شاذان.

ولا نرى حاجة بتتبع هذه الآثار وبيان من شكك في نسبة بعضها للإمام عليه السلام سيما كتاب الفقه الرضوي وكتاب العلل لابن شاذان، سيما وهدفنا من هذه الدراسة تربوي محض

..

المبحث الرابع: أساليبه التربوية وتعاليمه الراقية

خلف لنا الإمام الرضا عليه السلام مجموعة قيمة من التعاليم والوصايا التربوية والحضارية لكي تنير لنا الطريق، وتصنع في النفوس المؤمنة صنيع الغيث في التربة الكريمة، وتساعد الإنسان المسلم عند مراعاتها على إرتقاء سلم القيم أو على الأقل ترميم ما تهدم منها. ارتأينا تقسيم التعاليم التربوية والحضارية التي وردت عن الإمام عليه السلام إلى أربعة دوائر كل دائرة منها تنظم علاقة الإنسان بنفسه وبربه ونبيه أو إمامه وأبناء جنسه كالآتي:

أولاً: علاقة الإنسان بنفسه

للإمام عليه السلام تعاليم تربوية وحضارية تساعد الإنسان المسلم على السيطرة على نفسه وكبح جماحها، وإيقاظ خير ما في النفس البشرية من قيم ومشاعر وأحاسيس، وتسعى إلى استئصال كل جذور الشر في نفوس البشر.

ومن مجموعها يستفاد أن الإمام عليه السلام يريد للإنسان من خلال السيطرة على نفسه الارتقاء إلى مستوى إيماني أعلى، إنطلاقاً من تعدد مراتب الإيمان كما جاء في أحاديث أهل البيت عليه السلام بأن الإيمان: يزيد وينقص ويشتد ويضعف.

عن أبي عمر الزبيدي: قال الإمام الصادق عليه السلام: «الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي، ومنه الناقص البين نقصانه، ومنه الراجح الزائد» قلت: إنَّ الإيمان ليتم وينقص ويزيد؟ قال: «نعم»^(١).

وقد نسج الإمام الرضا عليه السلام على منوال جده الصادق عليه السلام فحث الإنسان المسلم على الارتقاء إلى مراحل إيمانية عالية والتحليق في مدارات روحية أسمى ..

روى الفضيل بن يسار عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: «إنَّ الإيمان أفضل من الإسلام بدرجة، والتقوى أفضل من الإيمان بدرجة، ولم يُعطِ بنو آدم أفضل من اليقين»^(٢).

(١) أصول الكافي ٢: ٣٣، ح ١، كتاب الإيمان والكفر.

(٢) أصول الكافي ٢: ١٦، ح ٦، باب: فضل الإيمان على الإسلام واليقين على الإيمان.

فإمامنا عليه السلام يريد للمؤشر الإيماني أن يرتفع لدينا وأن نصل إلى حقيقة اليقين المتمثل بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بالقضاء ..

عن سليمان الجعفري، عن أبي الحسن الرضا، عن أبيه عليه السلام قال: « رفع إلى رسول الله ﷺ قوم في بعض غزواته فقال: من القوم؟ فقالوا: مؤمنون يا رسول الله، قال: وما بلغ من إيمانكم؟ قالوا: الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بالقضاء، فقال رسول الله ﷺ: حلماء علماء، كادوا من الفقه أن يكونوا أنبياء، إن كنتم كما تصفون، فلا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون »^(١).

من جانب آخر نجد أن الإمام الرضا عليه السلام يدعو الإنسان إلى أن يضع نصب عينه دائما حقائق أساسية في الحياة، هي: الموت وأنه لا بد منه، والقدر وتحكمه فيه، والحياة وتحولها من حال إلى حال، فمن تيقن بالموت فسوف يحسب ألف حساب لما بعده من البعث والجزاء، وعندها سيسيطر على سلوكه ويهذبه خوفا من الحساب المرتقب.

ومن يدرك قوة القدر الجبارة التي تتحكم فيه، لا يحزن لما يصيبه من مصائب ونوازل، ولا يفقد توازنه إزاءها.

ومن يعي بأن الدنيا متقلبة الأحوال لا يركن إليها، ويوطن نفسه مسبقا على ما يصيبه منها من خير أو شر، وحينئذ لا يطر عند السراء ولا يجزع في الصراء.

ولالإمام وصايا وإرشادات تربوية وحضارية تسلك بالإنسان المسلم قصد السبيل، وتستأصل شأفة الشر من نفسه الأمانة بالسوء، وتساهم

(١) أصول الكافي ٢: ٤٨، ح ٤، باب: خصال المؤمن، كتاب الإيمان والكفر.

في طهارة نفسه وبدنه يمكننا الإشارة إليها بالفقرات التالية:

١ - التزام الصمت:

لا يخفى بأن أكثر مشاكلنا تتأتى من اطلاقنا العنان لألسنتنا بدون ضابط، وأن الكثير منا يرغب في الكلام أكثر من الاستماع، وهنا تستدعي الضرورة في أحيان كثيرة أن نترى على الاعتصام بالصمت في حالات الانفعال أو المواقف الحرجة، أو من أجل الحفاظ على الأسرار، من هنا يشيد إمامنا عليه السلام بالصمت، فهو عنده من علامات الفقه، وباب من أبواب الحكمة، ويرى بأن له معطيات اجتماعية عديدة.

عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: « من علامات الفقه: الحلم والعلم والصمت، إنَّ الصمت باب من أبواب الحكمة، إنَّ الصمت يكسب المحبة، إنه دليل على كل خير »^(١).

ومن المفيد التذكير أن هناك علاقة وثيقة بين العبادة والصمت، فالعبادة عادة تحتاج إلى صفاء وتفريغ عن المشاكل، واللسان المهذار أحد الأسباب التي تكدر صفو العبادة، وقد تسهم في إبطائها كما إذا تفوّه الإنسان بكلمات كبيرة كالكذب والسباب والفسوق وما إلى ذلك.

وعموماً فإطلاق العنان لللسان، وهو المعروف بعثراته وزلاته، يوقع الإنسان في شرك الشيطان الذي يوحى له بالسوء والفحشاء، الأمر الذي ينعكس سلباً على العبادة. من هنا ينبه الإمام عليه السلام إلى حقيقة منطقية، هي: أن السيطرة على النفس لا تتم إلا من خلال عقل اللسان عن عبارات

(١) أصول الكافي ٢: ١١٣، ح ١ باب: الصمت وحفظ اللسان، وكشف الغمة ٣: ٨٥، باب: ذكر طرف من دلائله وأخباره.

السوء والفحشاء:

عن الوشاء، قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: « كان الرجل من بني إسرائيل إذا أراد العبادة صمت قبل ذلك عشر سنين »^(١).

٢ - الحلم:

يبحث الإمام عليه السلام على الحلم ويعتبره من علامات الفقه كالعلم والصمت، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: « من علامات الفقه الحلم والعلم والصمت .. »^(٢).

ويجد لنا قاعدتين تربويتين، هما: السكوت عن الجاهل، وعدم عتاب الصديق، فكثيرا ما تكون البيئة التي تربي فيها والتربية الخاطئة التي تلقاها، هي السبب في بعض تصرفاته غير السليمة، وهنا لا بد من السكوت وغيض النظر عن الهفوات غير المهمة التي تصدر منه بصورة عفوية، وعدم معاتبته عليها، لأن العتاب قد يتطوّر إلى جدال بالباطل، الأمر الذي قد يتسبّب في قطع عروق العلائق بين الجانبين. وهنا يصب إمامنا عليه السلام هذه القواعد التربوية في قالب جميل من الشعر، قال له المأمون^(٣): هل رويت من الشعر شيئا، فقال عليه السلام: قد رويت منه الكثير، فقال: أنشدني أحسن ما رويته في الحلم، فقال عليه السلام:

إذا كان دوني من بليت بجهله أبيت لنفسي أن تقابل بالجهل
وإن كان مثلي في محلي من النهي أخذت بجليكياجل عن المثل

(١) أصول الكافي ٢: ١١٦، ح ١٩، باب: الصمت وحفظ اللسان.

(٢) أصول الكافي ٢: ١١٣، ح ١، باب: الصمت وحفظ اللسان.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٨٧، ح ١، باب (٤٣).

وإن كنت أدنى منه فيالفضل والنهي عرفت له حق التق-دم والفضل
فقال له المأمون: ما أحسن هذا، من قاله؟! فقال بعض فتياننا، قال: فأنشدي أحسن
ما رويته في السكوت عن الجاهل وترك عتاب الصديق، فقال عليه السلام:

إني ليهجرني الصديق تجنبا فأريه أن لهجره أسبابا
وأراه إن عاتبته أغرته فأرى له ترك العتاب عتابا
وإذا بليت بجاهل مستحكما يجد المحال من الأمور صوابا
أوليته مني السكوت وربما كان السكوت عن الجواب عتابا
ثم قال المأمون: أنشدني أحسن ما رويته في استجلاب العدو حتى يكون صديقا، فقال
عليه السلام:

ومن لا يدافع سيئات عدوه بإحسانه لم يأخذ الطبول من عدل
ولم أر في الأشياء أسرع مهلكا لغمر ^(١) قدم من وداد معجل
فالإمام هنا ونتيجة للأفق الاجتماعي الرّحب الذي يتمتع به يدعو ليس فقط إلى
السكوت عن الصديق وإنما إلى أبعاد من ذلك بكثير إلى استجلاب العدو حتى يكون
صديقا!.. إنها النفس الكبيرة.

٣ - الحياء:

وهو رأس الخصال الكريمة، وأصل المروءة وسبب العفة. والعلاقة وثيقة بين الإيمان والحياء،
فكلما زاد حياء الإنسان دل على مدى عمق إيمانه، وأما من خلع ثوب الحياء فلا إيمان له،
يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: « الحياء والإيمان مقرونان في قرن، فإذا ذهب أحدهما تبعه

(١) الغمر: الخقد.

صاحبه ^(١) .

وقد أكد الإمام الرضا عليه السلام على هذه الحقيقة المهمة، حقيقة التلازم بين الإيمان والحياء، فقال عليه السلام: « الحياء من الإيمان » ^(٢) . ومن هنا فمن يخلع حزام العفة وينطلق مع شهواته ولا يبالي بما قيل له أو فيه لا إيمان له واقعا ؛ لأن الإيمان التزام وشعور متغلغل في أعماق النفس يحكي عنه الحياء بجلاء.

٤ - التواضع:

وهو خصلة أخلاقية جميلة احتلت مكانا واضحا في فكر وسلوك إمامنا الرضا عليه السلام ؛ فعلى صعيد الفكر كشف عن المفهوم العميق للتواضع، وبين حدّه ودرجاته، ومن يتمعن في الرواية التالية يكتشف نفاذ رؤية الإمام عليه السلام وشمول نظرتة وعمق تناوله.

عن الحسن بن الجهم، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: « التواضع أن تعطي الناس ما تحب أن تُعطاه ».

وفي حديث آخر قال: « التواضع درجات؛ منها أن يعرف المرء قدر نفسه فينزها منزلتها بقلب سليم، لا يجب أن يأتي إلى أحد إلا مثل ما يؤتى إليه، إن رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ عاف عن الناس، والله يحب المحسنين » ^(٣) .

فهو يقدم لنا قراءة عظيمة لمفهوم التواضع، تنطلق من رؤيا دقيقة

(١) كنز العمال / المتقي الهندي ٣: ١٢١ / ٥٧٥٥.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٥٦، ح ٢٣، باب (٢٦) حول الحياء.

(٣) أصول الكافي ٢: ١٢٤، ٧ باب التواضع.

وموضوعية مفادها أن يعرف المرء أولاً وقبل كل شيء قدر نفسه ومنزلتها، ولا يرتفع بها فوق مقامها، كي لا يلام على ذلك، وقد يكون عرضة للسخرية والاستهزاء. وأن لا يحب لنفسه ما لا يحب لغيره، بل عليه أن يعامل الناس كما يحب أن يعاملوه، إضافة إلى ذلك يشير إمامنا إلى بُعد أبعد للتواضع فيه جنباً اجتماعية، ويتمثل بدران السيئة بالحسنة، وكظم الغيظ والعفو عن الناس.

هذا على صعيد الفكر أمّا على صعيد العمل فنجد في سلوكه عليه السلام يتواضع إلى الدرجة القصوى في تعامله مع الناس، ومن الأمثلة الحية على مقدار تواضعه، أنه دخل الحمام، فقال له بعض الناس: دلّكني يا رجل، فجعل يدلّكه، فعرفوه، فجعل الرجل يستعذر منه وهو عليه السلام يُطيب قلبه ويدلّكه ^(١).

فهو يرى أن الشرف والكرامة تتحقّق من خلال القيم والمقاييس المعنوية المتمثلة بالتقوى والطاعة لله تعالى وليس من خلال القيم والمقاييس المادية المتمثلة بالحسب والنسب، أو المال والقدرة وما إلى ذلك.

وكان عندما يكيلون له أو لأبائه عليهم السلام المديح والثناء يتواضع جدا ويكشف لهم عن المفهوم القرآني للشرف والخيرية المتمثل بالتقوى:

عن محمد بن موسى بن نصر الرازي، قال ^(٢): سمعت أبي، يقول: قال رجل للرضا عليه السلام: واللّه ما على وجه الأرض أشرف منك أبا، فقال عليه السلام: «التقوى شرفتهم، وطاعة اللّه أحظتهم»، فقال له آخر: أنت واللّه خير

(١) المناقب ٤: ٣٩.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦١، ح ١٠، باب (٥٨).

الناس، فقال له: « لا تحلف يا هذا، خير مني من كان أتقى لله تعالى وأطوع له، والله ما نسخت هذه الآية: (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)^(١) ».

حاول بذلك التنبيه على أن الاعتماد على محض القرابة ليس يستحسن في العقول، وإنما الشرف في الكمال العلمي والعملية ورأسهما التقوى.

وعن ابن ذكوان قال: سمعت إبراهيم بن العباس يقول: سمعت علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول: « حلفت بالعتق ولا أحلف بالعتق إلا أعتقت رقبة، وأعتقت بعدها جميع ما أملك إن كان يرى أنه خير من هذا - وأوماً إلى عبد أسود من غلمانة - بقرابتي من رسول الله ﷺ إلا أن يكون لي عمل صالح فأكون أفضل به منه »^(٢).

٥ - العمل لوجه الله تعالى:

العمل شعار المؤمن، وهو الذي يسهم في إيصاله إلى أعلى الدرجات، قال تعالى: « ومن يأتيه مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك هم الدرجات العلى »^(٣) والعمل هو الذي يفجر طاقات النفس الإبداعية، فتنتقل في آفاق أرحب وتحيا حياة طيبة، يقول عز وجل: (ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ..)^(٤).
ومعلوم أن مدرسة أهل البيت عليه السلام تركز على «الثنائي الحضاري»

(١) سورة الحجرات: ٤٩ / ١٣.

(٢) بحار الأنوار ٤٩: ٩٥، باب (٧).

(٣) سورة طه: ٢٠ / ٧٥.

المتمثل بالإيمان المقترن بالعمل، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: « لا تكن ممّن يرجو الآخرة بغير عمل »^(١).

والإمام الرضا عليه السلام يدعو المؤمن إلى سبر أغوار نفسه ومعرفة دافع العمل الذي يقوم به هل هو خالص لله أم لا؟ فليس العمل المجرد في الإسلام هو المطلوب، وإنما العمل المقترن بدوافع نبيلة ونية خالصة، والبعيد عن الرياء والسمعة، بتعبير آخر أن يكون خالصاً لله. وفي هذا الصدد يصوغ لنا إمامنا قاعدة عبادية، هي: « من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل ». عن محمد بن عرفة قال: قال لي الإمام الرضا عليه السلام: « ويحك يا بن عرفة، اعملوا لغير رياء ولا سُمعة، فإنّه من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل، ويحك! ما عمل أحد عملاً إلا رمّه الله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر »^(٢).

ثم إن الاستتار بالعمل يبعده عن الرياء والسمعة، ويوجب مضاعفة الثواب: عن العباس مولى الرضا عليه السلام قال: سمعته يقول: « المستتر بالحسنة يعدل سبعين حسنة، والمذيع بالسيئة مخذول، والمستتر بها مغفور له »^(٣).

وفي جانب آخر يصوغ لنا إمامنا قاعدة تتعلّق بالقناعة بالرزق وعلاقته بالعمل، ومفادها: « من يقتنع بالقليل من الرزق يكفيه القليل من العمل ».

(١) سورة النحل: ١٦ / ٩٧.

(٢) نهج البلاغة: ٤٩٧، حكمة رقم / ١٥٠.

(٣) أصول الكافي ٢: ٢٩٤ باب الرياء.

(٤) أصول الكافي ٢: ٤٢٨ / ١ باب ستر الذنوب.

قال عليه السلام: « من لم يقنعه من الرِّق إلا الكثير لم يكفه من العمل إلا الكثير ومن كفاه من الرِّق القليل فإنه يكفيه من العمل القليل »^(١).

فالإمام يذم - بصورة ضمنية - التكالب على الدنيا، ويرى بأن القناعة كترية خصبة ينمو فيها العمل ولو كان قليلا ما دام خالصا لله تعالى. أما حرص الإنسان على الحصول على فوق ما يكفيه من الرزق فقد يشغله بملذات ومغريات الدنيا، فيحتاج - والحال هذه - إلى عمل عبادي أكثر يتناسب وحجم ما يسعى لتحصيله كما هو مفاد الحديث.

٦ - الاستغناء عن الناس:

يدعو الإمام عليه السلام في تعاليمه التربوية على الاعتماد على النفس والامتناع عن طلب الحوائج من الآخرين وخاصة إذا كانوا مخالفين، صيانة لماء الوجه، وتنزيها للنفس عما يشينها: عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: جعلت فداك أكتب لي إلى إسماعيل بن داود الكاتب لعليّ أصيب منه، قال: « أنا أضن بك أن تطلب مثل هذا وشبهه، ولكن عوَّ على مالي »^(٢). فالإمام يريد العزة والكرامة للمسلم، وأن لا يكون كالأعلى غيره، وإن كان ولا بُد من الطلب فينبغي أن تُطلب الحاجة من الأفراد الصالحين، وأن لا تكون الحاجة خسيسة وغير ذات قيمة.

٧ - الاهتمام بالمظهر:

وهو أمر حضاري يعبر عن درجة الرقي لأفراد أي أمة. علما بأن

(١) أصول الكافي ٢: ١٣٨ / ٥ باب القناعة.

(٢) أصول الكافي ٢: ١٤٩ / ٥ باب الاستغناء عن الناس.

الإسلام قد حث من اعتنقه على الاهتمام بالنظافة عموماً، كما حث على الاهتمام بالاناقة، وكان الرضا عليه السلام يلفت النظر إلى أهمية الطيب، وفي هذا المجال يقول: « لا ينبغي للرجل أن يلعَ الطيب في كل يوم، فإن لم يقدر عليه فيوم ويوم لا، فإن لم يقدر ففي كل جمعة، ولا يدع ذلك » ^(١).

وعن الحسن بن الجهم، قال: قال أبو الحسن عليه السلام: « كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: لا يأبى الكرامة إلا حمار، قلت: مامعنى ذلك؟ قال: « التوسعة في المجلس والطيب يُعرض عليه » ^(٢).

نخلص من هذا كله إلى القول بأن الإمام الرضا عليه السلام قد ترك لنا ثروة معنوية لا تقدر بثمن، هي مجموع التعاليم التربوية والحضارية الرائعة التي ينبغي أن نضعها نصب أعيننا من أجل الصعود الحضاري بأفراد أمتنا إلى مدارج الكمال والرفعة.

ثانياً: علاقة الإنسان بخالقه

يدعو الإمام الرضا عليه السلام إلى بناء وتوثيق علاقة المسلم بخالقه، ويوقظ في نفسه العاطفة الدينية، ويزرع في وعيه المفهوم السليم للعبادة، وضرورة الإخلاص فيها، كما يبين الأساليب المؤدية إلى تعزيز العلاقة مع الرب، ويكشف عن النتائج الايجابية لمن أطاع ربه والعواقب الوخيمة لمن عصاه. والحديث التالي يقدم لنا مفهوما عميقا للعبادة يعطي فيه للفكر الأولوية، بينما يأتي العمل العبادي من صلاة وصوم وما إلى ذلك في المرتبة

(١) كشف الغمة ٣: ٨٦، باب: ذكر طرف من دلائله وأخباره.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٧٨، ح ٧٧، باب (٢٨).

الثانية:

عن معمر بن خالٍ قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: « ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكر في أمر الله عزوجل »^(١)، فإمامنا يقدم في مفهومه للعبادة الفكر والعقل لكونه أصل في الاعتقاد السليم، أما الشعائر وأعمال الجوارح فهي تابع للعقل والاعتقاد ومتفرعة عليه. ومن هنا كانت عبادة أكثر المقربين إلى أهل البيت عليه السلام كأبي ذر وعمار وسلمان وغيرهم (رضي الله عنهم) مقرونة بالتفكر والاعتبار، وقد سألوا أم ذر يوماً عن عبادته، فقالت: « كان نهاره أجمع يتفكر في ناحية من الناس »^(٢).

من جانب آخر يركز إمامنا عليه السلام على الإخلاص في العبادة لكونها تنطلق من بواعث ذاتية، كالتوبة، وبدونها يفسد العمل العبادي كما تُفسد قطرة الخل العسل. وفي هذا الخصوص يروي الرضا عليه السلام عن جده أمير المؤمنين عليه السلام قوله: « طوبى لمن أخلص لله العبادة والدُّعاء، ولم يشغل قلبه بما تراه عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أعطي غيره »^(٣).

ضمن هذا السياق يعرض لنا إمامنا عليه السلام أسلوبين لتقوية العلاقة مع الخالق، هما:

(١) أصول الكافي ٢: ٥٥ / ٤ باب التفكر.

(٢) تنبيه الخواطر / الأمير وپرم ١: ٢٥٠ باب التفكر.

(٣) أصول الكافي ٢: ١٣ / ٣ باب الاخلاص، كتاب الإيمان والكفر.

١ - أسلوب الاستغفار

ليس خافيا بأن الذنوب تمثل عائقا يحول دون توطيد العلاقة مع الرَّبِّ، والاستغفار هو الأسلوب الذي يرتضيه الرَّبُّ لكسب عفوه واستجلاب رحمته، وليس من شك في أن الاعتراف بالذنب مقدمة ضرورية عند العقلاء لتخفيف الجرم أو إلغائه، واللَّه تعالى سيد العقلاء يدعو عباده المذنبين الذين قطعوا حبل الوصال معه إلى الاستغفار والتوبة كمقدمة للدخول في حظيرة قدسه، بشرط أن يكون المستغفر صادقا في طلبه مقلعا عن ذنبه. والملاحظ أن إمامنا عليه السلام يستخدم ضرب الأمثال كأسلوب تربوي فعال لتقريب الفكرة إلى الواقع المحسوس في عقول الناس:

عن ياسر، عن الرضا عليه السلام قال: « مثل الاستغفار مثل ورق على شجرة تحرك فيتناثر، والمستغفر من ذنب ويفعله كالمستهزىء بربه »^(١).

٢ - أسلوب الدعاء

تتوطد دعائم العلاقة باللَّه تعالى من خلال الدعاء الذي يمثل الاتصال المباشر بين البشر وخالقهم، لا سيما وأن الله تعالى قد هدانا للإنسان بالدعاء وتكفَّل له بالإجابة. والدعاء هو شكل من العبادة بل أفضلها، قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: « أفضل العبادة الدعاء »^(١)، وهو أحب الأعمال إلى الله تعالى، قال أمير المؤمنين عليه السلام: « أحب الأعمال إلى الله عزَّوجلَّ في الأرض

(١) أصول الكافي ٢: ٥٠٤ / ٣ باب الاستغفار، كتاب الدعاء.

(٢) تنبيه الخواطر ٢: ٢٣٧.

الدعاء» ^(١)، وعن أبي جعفر عليه السلام: «إن الله تعالى يحب من عباده المؤمنين كل دعاء» ^(٢). وعلى هذا الأساس يبحث الإمام الرضا عليه السلام أصحابه وشيعته على الارتباط بالله وتقوية العلاقة معه من خلال الإلحاح بالدعاء، الذي هو - حسب تعبيره - سلاح الأنبياء: عن ابن فضال، بإسناده إلى الرضا عليه السلام أنه كان يقول لأصحابه: «عليكم بسلاح الأنبياء»، فقيل: وما سلاح الأنبياء؟ قال: «الدعاء» ^(٣).

وينقل لنا عليه السلام حديثاً عن جدّه زين العابدين عليه السلام مبيناً فيه الاقتران في الدنيا بين الدعاء والبلاء، كاشفاً عن القدرة الكبرى للدعاء في رفع أمواج البلاء المتلاطمة في بحر الحياة الهائج المائج: عن أبي هبّام إسماعيل بن هبّام، عن الرضا عليه السلام، قال علي بن الحسين عليه السلام: «إن الدعاء والبلاء ليتراققان إلى يوم القيامة، إنّ الدعاء ليردّ البلاء وقد أبرم إبراما» ^(٤).

ومن المفيد التذكير بأن الدعاء في السر أكثر ثواباً من الدعاء في العلن، لأن الأول يمثل اتصال مباشر بين العبد وربّه لا مجال فيه للرياء والنفاق أو إلحاق الأذى بالنفس أمام الظالمين أو إثارة مشاعر الآخرين، من هنا يوصي إمامنا عليه السلام بدعوة السر: عن أبي هبّام إسماعيل بن هبّام عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «دعوة العبد سرا دعوة واحدة تعدل سبعين

(١) أصول الكافي ٢: ٤٦٧ / ٨ باب الدعاء.

(٢) كتاب سلوة الذاكرين المعروف ب- «الدعوات» / قطب الدين الراوندي: ٣٤ / ٧٨.

(٣) أصول الكافي ٢: ٤٦٨ / ٥ باب: الدعاء سلاح المؤمن، كتاب الدعاء.

(٤) أصول الكافي ٢: ٤٦٩ / ٤ باب: ان الدعاء يرد البلاء والقضاء، كتاب الدعاء.

دعوة علانية». وفي رواية أخرى: « دعوة تخفيها أفضل عند الله من سبعين دعوة تظهرها » (١).
ويلفت نظرنا عليه السلام إلى نقطة مهمة، وهي عدم القنوط واليأس عند تأخر إجابة الدعاء،
فالقنوط أو اليأس نوع من إساءة الظن بالله تعالى، ولأن الله تعالى حكيم ورحيم وأعرف
بمصالح عبده، فقد يستجيب الدعاء ولكن يؤخره للوقت أو الظرف المناسب للعبد، وعليه
يُسدّي الإمام عليه السلام نصيحته لشيعته بتجنب الوقوع في شرك الشيطان، الذي يحاول أن يقنط
الإنسان من رحمة ربه:

عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: جعلت فداك إني قد
سألت الله حاجة منذ كذا وكذا سنة وقد دخل قلبي من إبطائها شيء، فقال: « يا أحمد،
إياك والشيطان أن يكون له عليك سيلا حتى يقنطك، إنَّ أبا جعفر صلوات الله عليه كان يقول:
إنَّ المؤمن يسأل الله عزَّوجلَّ حاجة فيؤخر عنه تعجيل إجابته حباً لصوته واستماع نحيبه ».

ثمَّ قال: « والله ما أحرَّ الله عزَّوجلَّ عن المؤمنين ما يطلبون من هذه الدنيا خير لهم ممَّا عجل
لهم فيها، ممَّا شيء الدنيا؟ إنَّ أبا جعفر عليه السلام كان يقول: ينبغي للمؤمن أن يكون دُعَاؤُهُ في الرِّخَاءِ
نحواً من دُعَائِهِ في الشَّدَّةِ، ليس إذا أعطي فَبَرَّ، فلا تمل الدَّعاء فأنه من الله عزَّوجلَّ بمكان،
وعليك بالصَّبْر وطلب الحلال وصلَّة الرِّحْمِ، وإياك ومكاشفة الناس، فإنَّ أهل البيت نصل من قطعنا
ونُحسن إلى من أساء إلينا، فنرى والله في ذلك العاقبة

(١) أصول الكافي ٢: ٤٧٦ / ١ باب: اخفاء الدعاء، كتاب الدعاء.

الحسنة « (١) .

وفي هذا الإطار يكشف لنا الإمام عليه السلام عن الثمار الطيبة التي يجنيها الإنسان المسلم عند ارتباطه بربه وإيثار طاعته، وبالمقابل يبين لنا العواقب الوخيمة المترتبة على المعصية: عن سليمان الجعفري، عن الرضا عليه السلام قال: « أوحى الله عزوجل إلى نبي من الأنبياء: إذا أطعت رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية، وإذا عصيت غضبت، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تبلغ السابع من الورى (٢) .. » (٣) .

وهكذا يقدم لنا رؤية شمولية لتوثيق العلاقة مع الخالق، تلك العلاقة التي تعود بأعظم الفوائد على المخلوق في الدنيا والآخرة.

ثالثاً: علاقة المسلم بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام:

لا بد للمسلم السوي من أن يوطد علاقته بأولياء أمره الذين فرض الله طاعتهم، فهم حجج الله تعالى ووسيلته إلى رضوانه والشفعاء في يوم حسابه. وتوطيد العلاقة معهم يتأتى من خلال الاقتداء بهديهم والتأسي بهم، وفي طليعتهم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، يقول أمير المؤمنين عليه السلام موصياً: « اقتدوا بهدى نبيكم فإنه أفضل الهدى، واستنوا بسنته فإنها أهدى السنن » (٤) وهنا يرشدنا الإمام الرضا عليه السلام إلى دوام الصلاة على النبي

(١) أصول الكافي ٢: ٤٨٨ / ١ باب: من أبطأت عليه الإجابة، كتاب الدعاء.

(٢) الورى: ولد الولد.

(٣) أصول الكافي ٢: ٢٧٥ / ٢٦ باب: الذنوب، كتاب الإيمان والكفر.

(٤) نهج البلاغة / تحقيق: السيد جعفر الحسيني، خطبة ١١٠.

الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرفانا بالجميل، وتقديرا للجهود الجبارة التي بذلها من أجل أمته: عن عبيدالله بن عبدالله الدهان، قال: دخلت على أبي الحسن الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال لي: « ما معنى قوله: (**وَكَّرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**) ^(٢) » قلت: كلما ذكر اسم ربه قام فصلّى، فقال لي: « لقد كلّف الله عزّوجلّ هذا شططا » ^(٣) فقلت: جعلت فداك فكيف هو؟ فقال: « كلما ذكر اسم ربه صلّى على محمّد وآله » ^(٤).

أما أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فهم شمس الهداية الأبدية لهذه الأمة وسفن نجاتها، وفي هذا المورد يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: « انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سَمْتَهُمْ وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ، فلن يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُبْدَى، وَلَنْ يُعِيدُوْكُمْ فِي رَدَى » ^(٥)، ويرشد الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ شيعته إلى إحياء ذكر أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وإقامة مجالس العزاء تثمينا للتضحيات الجسام التي بذلوها والمصائب العظام التي لاقوها في سبيل إعلاء كلمة الدين: عن علي بن الحسن بن فضال عن أبيه، قال الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ: « من تذكر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلسا يحيي فيه أمرنا لم يمته قلبه يوم تموت القلوب » ^(٦).

وهذا الحديث فيه أسلوب تربوي قيم يُعمق من رابطة الولاء بين

(١) سورة الأعلى: ٨٧ / ١٥.

(٢) الشطط: مجاوزة القدر في كل شيء، يعني لو كان كذلك لكان التكليف فوق الطاقة.

(٣) أصول الكافي ٢: ٤٩٤ - ٤٩٥ / ١٨ باب: الصلاة على النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كتاب الدعاء.

(٤) نخب البلاغة، خطبة ٩٧.

(٥) عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ ١: ٢٦٤ / ٤٨ باب (٢٨).

المسلم وأئمته عليهم السلام، فإدامة ذكرهم وذكر مصائبهم تُنمي في وعيه ووجدانه الأفكار والمفاهيم الإسلامية الصحيحة، فتنتقل في داخله ينابيع العواطف الإنسانية الخيرة، إضافة إلى المعطيات الايجابية التي يحصل عليها يوم الحساب حيث الثواب الجزيل.

رابعاً: علاقته بأبناء جنسه

يريد الإسلام من الإنسان أن يخرج بوعيه من قفص الأنانية الضيق إلى أفق الإنسانية الأرحب، وأن لا يتقوقع على ذاته وينعزل عن محيطه الاجتماعي، وإلا تحولت حياته إلى صحراء مجذبة. لذلك يشجع الإنسان على بناء وتدعيم علاقات طيبة مع أبناء جنسه قائمة على الاحترام المتبادل وتبادل المنفعة والمعونة وإسداء النصيحة وما إلى ذلك.

والملاحظ أن المسألة الاجتماعية تأخذ مكان الصدارة في الآيات القرآنية والروايات الواردة عن النبي وأهل بيته (صلوات الله عليهم)، ولإمامنا الرضا عليه السلام نصائح وإرشادات قيمة بخصوص المسألة الاجتماعية عند مراعاتها تشكل صمام أمان لبناء إنسان مسلم ملتزم بالحقوق الاجتماعية المترتبة عليه.

والملاحظ أن اهتمام الإمام عليه السلام ينصب أولاً على الدائرة الاجتماعية الأقرب للإنسان وهي دائرة الوالدين، الذين لهم حق عظيم عليه في ولادته ونشأته وتربيته، فأقل ما يتوجب لهما من الحقوق وجوب مداراتهما وعدم عقوقهما، إذا كانا على قيد الحياة، أما إذا طوى الموت صفحة حياتهما فينبغي على الأولاد الدعاء لهما والتصديق عنهما، بغض النظر عن عقيدتهما

أو عدم معرفتهما للمذهب الحق: عن معمر بن خلاد قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: أَدْعُوا لوالدي إذا كانا لا يعرفان الحق؟ قال: « ادع لهما وتصدق عنهما، وإن كانا حيين لا يعرفان الحق فدارهما، فإن رسول الله ﷺ قال: إن الله بعثني بالرحمة لا بالعقوب » (١).

فهنا يوقظ إمامنا عليه السلام خير ما في نفس الإنسان من أحاسيس خيرة وعواطف نبيلة تجاه والديه، ويكشف عن المعطيات الإيجابية التي سيحصل عليها المسلم في الدنيا قبل الآخرة والمتمثلة بطول العمر:

عن محمد بن عبيد الله: قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: « يكون الرجل يصل رحمه فيكون قد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيرها الله ثلاثين سنة، ويفعل الله ما يشاء » (٢).

ومما يدل على الأهمية القصوى التي يوليها الإمام عليه السلام للمسألة الاجتماعية توسيعه من دائرة الاهتمام بالحيط الاجتماعي لتشمل الجار والقريب والصديق، وهم الذين يمتون بصلة القرابة مع الإنسان المسلم ويشاركونه بالعيش في محيطه، ويمكننا الإشارة إلى أبرز الارشادات في هذا الصدد بالنقاط التالية:

١ - **المواساة والإخاء في الله تعالى:** عمل إمامنا على تكريس مبدأ الإخاء عمليا من خلال تعامله مع خدمه وحشمه، فعن ياسر الخادم، قال: كان الرضا عليه السلام إذا خلا جمع حشمه كلهم عنده، الصغير والكبير فيحدثهم ويأنس بهم ويؤنسهم، وكان عليه السلام إذا جلس على المائدة لا يدع

(١) أصول الكافي ٢: ١٥٩ / ٨ باب: البر بالوالدين، كتاب الإيمان والكفر.

(٢) أصول الكافي ٢: ١٥٠ / ٣ باب: صلة الرحم، كتاب الإيمان والكفر.

صغيرا ولا كبيرا حتى السائس والحجام إلا أفعده معه على مائدته^(١).
 لقد جعل إمامنا عليه السلام الإخاء مقرونا بالطاعة لله، فليس الإخاء - عنده - إلا طاعة لله تعالى، فكل من أطاع الله فهو أخ وقريب وإن بُعِدَتْ لحمته، وكل من عصاه فهو بعيد وإن قرب نسبه، ومن مصاديق ذلك:
 روي أن الإمام الرضا عليه السلام قال لأخيه زيد: « أنت أخي ما أطعت الله، فإن عصيت الله فلا أخاء بيني وبينك »^(٢).

٢ - العطاء والسخاء: لهاتين الفضيلتين دور كبير في جذب النفوس واستمالتها، فإن الإنسان بطبعه يحب الخير والمنفعة، ولا ينسى في الغالب من أسدى إليه الإحسان. وكان إمامنا عليه السلام كآبائه الأطهار عليهم السلام جوادا كريما، ينفق على المعوزين، ولا يمسك مالا، يقوم بقضاء حوائج المحتاجين، ولا يرد سائلا، ولا يُجَبِّب مؤملا، وهناك شواهد عديدة على ذلك أرادها أن تكون أدبا أو منهجا للسائرين في طريقه عليه السلام، منها ما جاء عن اليسع بن حمزة: أن رجلا قال له: السلام عليك يا بن رسول الله، أنا رجل من محبيك ومحبي آبائك، مصدري من الحج، وقد نفذت نفقتي وما معي ما أبلغ مرحلة، فإن رأيت أن تهبني إلى بلدي .. فإذا بلغت بلدي تصدقت بالذي توليني عنك، فلست موضع صدقة. فقام عليه السلام فدخل الحجره وبقي ساعة، ثم خرج ورد الباب وأخرج يده من أعلى الباب، فقال: « خذ هذه المائتي دينار فاستعن بها في أمورك ونفقتك وتبر بها ولا تصدق بها عني، اخرج ولا أراك ولا تراني ». فلما خرج سئل عن ذلك فقال: « مخافة أن أرى ذل

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢ / ١٧٠، ح ٢٤، باب (٤٠).

(٢) المناقب / ابن شهر آشوب ٤: ٣٩١.

السؤال في وجهه لقضاء حاجته»^(١). ما أعظمه من موقف تربوي أن يكون العطاء بدون امتنان، ويحفظ كرامة الإنسان.

وعن يعقوب بن إسحاق النوبختي، قال: مر رجل بأبي الحسن الرضا عليه السلام فقال له: أعطني على قدر مروّتك، قال: « لا يسعني ذلك»، فقال: على قدر مروّتي، قال: « إذا فنعم»، ثم قال: « يا غلام أعطه مائتي دينار»^(٢).

وقد فرق بخراسان ماله كله في يوم عرفة، فقال له الفضل بن سهل: إن هذا لمغرم، فقال: « بل هو لمغرم، لا تعدن مغرما ما ابتغيت به أجرا وكرما»^(٣).

وقد تجسّد عطاؤه - أيضا - في عتق العبيد، حيث آمن بكرامة الإنسان وسعى إلى تحريره من برائن العبودية والرّق، ومن مصاديق ذلك: أنه أعتق ألف مملوك^(٤)، وكان عليه السلام يمجّد السخاء ويرى بأن السخي قريب من الخالق ومن الخلق على حد سواء، وبالمقابل يذم البخيل لكونه يبعد الإنسان عن ربه وعن أبناء جنسه: عن الحسن بن علي الوشاء، قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: « السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد عن النار، والبخيل بعيد عن الجنة، بعيد عن الناس، قريب من النار»^(٥).

(١) المناقب / ابن شهرآشوب ٤: ٣٩٠.

(٢) المناقب / ابن شهرآشوب ٤: ٣٩٠.

(٣) المناقب / ابن شهرآشوب ٤: ٣٩٠.

(٤) الاتحاف بحب الاشراف / الشيخ عبد الله الشبراوي: ١٥٥.

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥، ح ٢٧، باب (٣٠).

ضمن هذا السياق حدد بعمق أظهر علامات السخي والبخيل فقال: « السخي يأكل من طعام الناس ليأكلوا من طعامه، والبخيل لا يأكل من طعام الناس لنلا يأكلوا من طعامه » (٤).

وعن معمر بن خلاد قال: كان أبو الحسن الرضا عليه السلام إذا أكل أتي بصحفه توضع بطرف مائدته، فيعمد إلى أطيب طعام مما يؤتى به فيأخذ من كل شيء شيئاً فيوضع في تلك الصحفة، ثم يأمر بها للمساكين، ثم يتلو هذه الآية: (**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**) ثم يقول: « علم الله عزّ جل أن ليس كلُّ إنسان يقدر على عتق رقبة، فجعل لهم السبيل إلى الجنة بإطعام الطعام » (٢).

٣ - العذر: دعا إمامنا إلى التسامح مع الناس، والتماس العذر لكل من أساء التصرف منهم أو أخطأ بحق الآخرين، ودعا إلى حمل عمل المسيء على أحسن المحامل، والستر على عيوبه، وله أشعار حول قبول العذر، فعن أبي الحسن القرظي عن أبيه قال: حضرنا مجلس أبي الحسن الرضا عليه السلام فجاء رجل فشكا إليه حاله فأنشأ الرضا يقول:

أعذر أخاك على ذنوبه واصبر وغلظ على عيوبه
 واصبر على سفه السفية وللزمان على خطوبه
 ودع الجواب تفضيلاً وكل الظلوم على حسيه (٣)

٤ - عدم مجالسة أهل المعاصي: إدراكا من الإمام عليه السلام بأن الوقاية خير من العلاج، فهو يحذر من مجالسة أهل المعاصي ولو كانوا ضمن دائرة

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥، ح ٢٧، باب (٣٠).

(٢) بحار الأنوار ٤٩: ٩٧، باب (٢٧).

(٣) الفصول المهمة / ابن الصباغ المالكي: ٢٤٤، الفصل الثالث.

الأقربين ؛ لأن العدوى الفكرية أخطر من العدوى الجرثومية، فهي تورث الإنسان موارد الهلكة والنقمة في الدنيا والعذاب الدائم في الآخرة:

عن الجعفري، قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول لأبي: « ما لي رأيتك عند عبد الرحمن بن يعقوب؟ » فقال: إنه خالي، فقال: « إنه يقول في الله قولاً عظيماً، يصف الله ولا يوصف، فإمّا جلست معه وتركتنا، وإمّا جلست معنا وتركته؟ » فقلت: هو يقول ما يشاء، أيُّ شيء عليّ منه إذا لم أقل ما يقول؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: « أما تخاف أن تنزل به نقمة فتصيبكم جميعاً؟ أما علمت بالذي كان من أصحاب موسى عليه السلام وكان أبوه من أصحاب فرعون، فلمّا لحقت خيل فرعون موسى تخلف عنه ليعط أباه فيلحقه بموسى فمضى أبوه وهو يراغمه ^(١) حتى بلغا طرفاً من البحر، فغرقا جميعاً، فأتى موسى عليه السلام الخبر، فقال: هو في رحمة الله، ولكنّ النقمة إذا نزلت لم يكن لها عمّن قارب الذنب دفاع ^(٢) .

الرواية المتقدمة ذات قيمة اجتماعية كبرى، ففيها دعوة إلى الانسلاخ الاجتماعي من الموبوئين فكريا والحجر عليهم والابتعاد عنهم.

صحيح أن الأفراد المحصنين عقائديا والواعين فكريا لا يتأثرون بأمثال هؤلاء، ولكن الخشية كل الخشية تتأتى من النقمة الإلهية التي إذا نزلت فإنها تعم الكافر والمؤمن على حد سواء في دار الدنيا، وإن كان المؤمن تشمله رحمة الله في الآخرة. هذا فضلا عما في مجالسة أهل المعاصي من إضفاء صورة عليهم لا يستحقونها ؛ لأنهم أهل للتحقير والاستصغار

(١) المراغمة: المحران والتباعد والمغاضبة، أي يباليغ في ذكر ما يبطل مذهبه.

(٢) أصول الكافي ٢: ٣٧٤ / ٢، أمالي الشيخ المفيد: ١١٢ / ٣.

لا أهل للتقدير والاحترام.

هذه الحقيقة الجوهرية التي أثارها الإمام عليه السلام والمتمثلة بتسبب الفكر المنحرف في دمار المجتمع والمدنية لم يلتفت إليها علماء الاجتماع وخاصة الغربيين منهم، فهؤلاء ينظرون لعوامل المخطاط وتدمير المجتمعات وسقوط الحضارات وفق نظرة مادية تستبعد كلياً العوامل الغيبية كنزول النعمة الإلهية.

أما النظرية الإسلامية في علم الاجتماع فتأخذ بنظر الاعتبار عامل الغيب، وتعدده من أبرز العوامل المؤثرة في تدمير المجتمعات وسقوط الحضارات، وإمامنا هنا أرشد إلى هذا العامل الفاعل بصورة لابس فيها.

وهناك عدة ارشادات راقية للإمام الرضا عليه السلام وهي صالحة للانطباق على أكثر من دائرة واحدة من دوائر العلاقة السالفة الذكر، ويمكننا الإشارة إليها من خلال الفقرات الآتية:

أ - **التمجيد بالعقل:** ما من دين ذهب أبعد من الإسلام في التمجيد بالعقل وتثمين دوره في الاعتقاد، وكان إمامنا الرضا عليه السلام ينسج على منوال الإسلام في تأكيد قيمة العقل وإبراز مكانته، فقد اعتبر العقل حجّة على الخلق، يتضح لنا ذلك من الحوار الذي دار بين الإمام الرضا عليه السلام وبين ابن السكيت الذي أثنى على الإمام عليه السلام قائلاً: «والله ما رأيت مثلك» .. ثم سأله: فما الحجّة على الخلق اليوم؟

فقال: «العقل، يعرف به الصادق على الله فيصدقه، والكاذب على الله فيكذبه». فقال ابن السكيت: هذا والله هو الجواب ^(١).

(١) الاحتجاج ٢: ٢٢٥.

قال الطبرسي: قد ضمّن الرضا عليه السلام في كلامه هذا أن العالم لا يخلو في زمان التكليف من صادق من قبل الله يلتجئ إلى المكلف إليه في أمر الشريعة، صاحب دلالة تدل على صدقه عليه تعالى، يتوصّل المكلف إلى معرفته بالعقل، ولولاه لما عرف الصادق من الكاذب، فهو حجة الله على الخلق أولاً^(١).

مما تقلّم يبدو لنا أن الإمام عليه السلام أراد أن يغرّس في نفوس الناس القيمة الحضارية للعقل حتى يحرّهم من عقال الجهل، لذلك دعا إلى عقد صداقة وثيقة مع العقل وتحكيمه في شؤون الحياة، وبالمقابل معاداة الجهل، فعن حمدان الديواني، قال: قال الرضا عليه السلام: « صديق كل امرء عقله، وعدوه جهله »^(٢).

ب - توجيه النصح والمواعظ: وهي من الأساليب التربوية العظيمة النفع، وبها جاءت سائر الأديان، وعمل بها جميع الأنبياء والرسل والأوصياء عليهم السلام كما اتبعها كثير من القادة والزعماء من أجل أن يغرّسوا في ثنايا النفوس بذور الخير والصلاح، وتقويم اعوجاج السلوك. وكان إمامنا عليه السلام يكثر من وعظ المأمون إذا خلا به، ويخوّفه بالله ويقبّح له ما يرتكبه من خلافه، وكان المأمون يظهر قبول ذلك ويبطن كراهته^(٣).

كان الإمام يعلم بأن الدين النصيحة، وعليه كان لا ييخل بإسداء نصائحه المخلصة كلما وجد التربة الصالحة لغرسها، ولكن هناك صنف من

(١) الاحتجاج ٢: ٢٢٥.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٣٤، ح ١٥، باب (١٦).

(٣) كشف الغمة ٣: ٧٤، باب: ذكر طرف من دلائله وأخباره.

الناس لا يقبل النصيح ولا يجدي معه الموعظة، ففي هذه الحالة يرى الإمام عليه السلام بأن من العيب محض النصيحة لأمثال هؤلاء:

جاء قوم بخراسان إليه عليه السلام فقالوا: إن قوما من أهل بيتك يتعاطون أمورا قبيحة، فلو نهيتم عنها؟ قال: « لا أفعل »، فقليل: ولم؟ قال: « سمعت أبي عليه السلام يقول: النصيحة خشنة »^(١).

ج - - **عدم الرضا عن المنكر:** يصوغ لنا الإمام عليه السلام قاعدة حضارية كبرى لو طبقت على صعيد العالم لعم السلام والأمن الأرض ألا وهي «قاعدة الرضا» فهو يقرر بحق: « أن من رضي شيئا كان كمن أتاه » لكون الرضا هو الأساس النفسي للفعل، وبمقتضى هذه القاعدة: من رضي عن الفعل الحسن فهو يشارك في ثوابه، أما من رضي بالفعل القبيح فسوف يشترك في الإثم المترتب عليه، وهذه القاعدة لم تأت من فراغ، وإنما تنبثق من دستور الإسلام العظيم قرآنا وسنة.

وتتضح لنا أبعاد هذه القاعدة لو علمنا بأن كثيرا من الجرائم والتجاوزات تقع ويتكرر وقوعها بسبب رضا البعض بوقوعها أو سكوتة حيالها، فلو رفع كل إنسان صوته ضد الظلم والعدوان لاندحر الباطل وعلا صوت الحق.

عن عبد السلام الهروي، قال: قال الرضا عليه السلام: « من رضي شيئا كان كمن أتاه، ولو أن رجلا قتل بالمشرك فرضي بقتله رجل في المغرب لكان الراضي عند الله عز وجل شريك القتال .. »^(٢).

(١) كشف الغمة ٣: ٨٦، باب: ذكر طرف من دلائله وأخباره.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٤٧، ح ٥، باب (٢٨).

د - إقتفاء السنن: يلفت إمامنا نظرنا إلى وجود سنن أو خصال تربوية ينبغي مراعاتها من قبل الإنسان المؤمن، لكي يكون سلوكه سويًا، تتضح لنا هذه السنن أو الخصال فيما روي عن إمامنا أنه قال: « لا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يكون فيه ثلاث خصال: سنّة من ربه، وسنّة من نبيه، وسنّة من وليه؛ فالسنّة من ربه كتمان سره .. أما السنّة من نبيه فمداراة الناس .. وأما السنّة من وليه فالصبر على البأساء والضراء .. »^(١).

* * *

(١) كشف الغمة ٣: ٨٤.

الفصل الخامس

دوره في الحفاظ على هوية التشيع

إن كل فكر ما لم يُجْمَ ويُصان سيكون عرضة للزيادة فيه، أو النقصان منه، وربما سيؤول أمره إلى الزوال أو الاندثار، خصوصا إذا ما وُجِدَ في تاريخه من يحمل لواء محاربه وعلى أكثر من صعيد.

ولو تصفحنا تاريخ العقائد عند سائر الأديان والمذاهب لوجدنا ظاهري التحريف والزوال أو الاندثار ماثلتين عيانا في مصاديق شتى. وما أقول شمس مذهب الاعتزال ومذهب الظاهرية ومذهب الطبري إلا أمثلة حيّة وواقعية على صدق ما نقول.

وإذا ما قيس هذا بمذهب التشيع كفكر ذي عمق وأصالة سنرى أن كل المقاييس التي أدت إلى زوال جملة من المذاهب الفكرية أو الفقهية كانت متوفرة على أشدها بإزاء مذهب التشيع، الأمر الذي يفسر لنا السر العجيب وراء بقاء التشيع وصموده في ظل محاربه على امتداد تاريخه. كما يكشف لنا بوضوح عن الأدوار العظيمة التي اضطلع بها أهل البيت عليهم السلام كل من موقعه وظرفه في الحفاظ على هذا الكيان وحمايته والذود عنه، وتهديب نفوس المنتمين إليه وتربيتهم تربية صالحة ليتحملوا بدورهم قسطا من مسؤولية الصراع على البقاء.

وفي هذا الصدد نجد الإمام الرضا عليه السلام قد قام بدور جليل لتحقيق هذه الغاية ضمن منهج قويم، فبدد غيوم الشبهات وأزال الشوائب التي حاول البعض لصقها بالشيعة والتشيع، كالغلو، والتناسخ والحلول.

لقد عمل إمامنا على ثلاثة محاور أساسية:

- ١ - ضد الفكر المنحرف الذي يمثل الغلو وكل ما يتنافى مع التنزيه.
- ٢ - الوقوف بحزم ضد شبهات الواقفة، والفرق الأخرى المحسوبة على التشيع.
- ٣ - بيان الوجه الناصع للتشيع كفكر وعقيدة وحياة، وتربية الشيعة عليها في وصايا وارشادات ورسائل ومكاتبات، وقد استوفينا أهمها في الفصل السابق، لذا سيدور بحثنا هنا حول المحورين الأولين:

المبحث الأول: موقفه من الغلو والغلاة:

باديء ذي بدأ لابد لنا من معرفة المراد بالغلو لكي نتضح خطورته ومن ثم سوف نتعرض لموقف الإمام الرضا عليه السلام منه.

الغلو: هو تجاوز الحد، يقال: غلا في الدين والأمر يغلو غلوا، وقال بعضهم: هو تجاوز الحد والإفراط فيه ^(١).

يقول الشهرستاني: ان الغلاة هم الذين غلو في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخلقية، وحكموا فيهم بأحكام الإلهية، وربما شبهوا واحدا من الأئمة بالإله، ولربما شبهوا الإله

(١) أنظر: لسان العرب / ابن منظور ١٠: ١١٢، مادة (غلا).

بالخلق^(١).

لقد عمل الغلاة على اتخاذ مواقف مناقضة لمبادئ الإسلام الصافية مما دفع أئمة الشيعة ورجالها إلى البراءة منهم ومحاربتهم.

ومن خلال النظرة الفاحصة للروايات الواردة عن الإمام الرضا عليه السلام حول الغلاة، يمكننا تحديد موقفه منهم من خلال النقاط التالية:

أولاً: إن الغلو كان نتيجة الوضع في الأخبار:

لقد نوهنا بأن الإمام عليه السلام في معرض رده للشبهات المثارة على أهل البيت عليهم السلام قال لإبراهيم ابن أبي محمود: « إن أعدائنا وضعوا أخباراً على ثلاثة أقسام: أحدها الغلو .. فإذا سمع الناس الغلو فينا كفروا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا »^(٢).

ثانياً: إن الأئمة عليهم السلام عباد مخلوقون وليسوا بأهله:

لقد سدَّ إمامنا المنافذ أمام الغلاة الذين شبهوا الأئمة بالإله من خلال شبهة المعجزات، فأعلن أن الأئمة ليسوا بأكثر من عباد مخلصين اصطفاهم الله تعالى لدينه، وليسوا بأهله، وأن المعجزات التي ظهرت على أيديهم هي كرامات أكرمهم الله تعالى بها. يتضح لنا كل ذلك من الرواية التالية: عن أبي محمد العسكري أن أبا الحسن الرضا عليه السلام قال: « إنَّ من تجاوز بأمير المؤمنين العبودية فهو من المغضوب عليهم ومن الضالين. وقال أمير

(١) الملل والنحل ١: ١٥٤.

(٢) انظر: عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٧٢، ح ٦٣، باب (٢٨).

المؤمنين عليه السلام : لاتتجاوزوا بنا العبودية، ثم قولوا ما شئتم ولن تبلغوا، وإياكم والغلو كغلو النصارى،
فإني بريء من الغالين».

وسئل عليه السلام - في الرواية نفسها - عن قول الغلاة (لعنهم الله) في أمير المؤمنين عليه السلام،
فقال عليه السلام: « سيحان الله عما يقول الظالمون والكافرون علم كبيراً!! أوليس علي كان آكلاً في
الأكلين، وشارباً في الشاربين، وناكحاً في الناكحين، ومحدثاً في المحدثين؟ وكان مع ذلك مصلياً
خاصاً بين يدي الله ذليلاً، وإليه أمها منيباً، أفمن هذه صفته يكون إليها؟! فإن كان هذا إليها فليس
منكم أحد إلا وهو إله لمشاركته له في هذه الصفات الدالات على حدوث الموصوف بها».

ثم قال عليه السلام عن شبهة المعجزات التي تشبث بها الغلاة (لعنهم الله): « لِمَا ظهر منه
(الفقر والفاقة) دل على أن من هذه صفاته وشاركه فيها الضعفاء المحتاجون لاتكون المعجزات
فعله، فعلم بهذا أن الذي أظهره من المعجزات إنما كانت فعل القادر الذي لايشبه المخلوقين،
لافعل المحدث المحتاج المشارك للضعفاء في صفات الضعف»^(١).

وسأله المأمون ذات يوم عن الغلاة فقال عليه السلام: « حدثني أبي موسى بن جعفر، عن أبيه
جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي،
عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: لاترفعوني فوق حقي، فان الله
تبارك وتعالى اتخذني عبداً قبل أن يتخذني نبياً، قال الله تبارك وتعالى: (ما كان لبشر أن يُؤتية
الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون

(١) الاحتجاج ٢: ٤٥٣ - ٤٥٤، باب (٣١٤).

اللَّهِ .. (١) .

وقال علي عليه السلام: يهلك في اثنان ولا ذنب لي؛ محب مفرط، ومبغض مفرط، وأنا أبرأ إلى الله تعالى ممن يغلو فينا ويرفعنا فوق حقنا كبراءة عيسى بن مريم عليها السلام من النصارى، قال الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا نَقُلْتُ لِلنَّاسِ انْخُذْ بِي وَأُمِّي الْهَيْمَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ..) (١) وقال عزوجل: (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ..) (٢) وقال عزوجل: (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ..) (٤) ومعناه أنهما كانا يتغوّطان، فمن ادعى للأنبياء ربوبية وادعى للأئمة ربوبية أو نبوة أو لغير الأئمة إمامة فنحن منه براء في الدنيا والآخرة « (٥) .

ثالثاً: تكفير الغلاة والزجر عن مخالطتهم:

وخير ما يعبر عن هذا رواية أبي هاشم الجعفري عليه السلام عن الإمام الرضا عليه السلام وقد سأله عن الغلاة، فقال بعد أن كفرهم صراحة:
« .. من جالسهم أو خالطهم أو آكلهم أو شاربهم أو واصلهم أو زوّجهم أو تزوج منهم أو آمنهم أو ائتمنهم على أمانة أو صدق حديثهم أو أعانهم بشطر كلمة خرج من ولاية الله عزوجل وولاية رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وولايتنا أهل

(١) سورة آل عمران: ٣ / ٧٩ .

(٢) سورة المائدة: ٥ / ١١٦ .

(٣) سورة النساء: ٤ / ١٧٢ .

(٤) سورة المائدة: ٥ / ٧٥ .

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢١٧، ح ١، باب (٤٦) .

البيت « (١) .

رابعاً: تشبيهه عليه السلام الغلاة باليهود ونظرائهم:

عن علي بن معبد بن الحسين بن خالد الصيرفي، قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: « من قال بالتناسخ فهو كافر » ثم قال عليه السلام: « لعن الله الغلاة، ألا كانوا يهوداً! ألا كانوا مجوساً! ألا كانوا نصارى! ألا كانوا قدرية! ألا كانوا مرجئة! ألا كانوا حرورية! » ثم قال عليه السلام: « لا تقاعدوهم ولا تصادقوهم، وابرؤوا منهم، بريء الله منهم » (٢) .

المبحث الثاني: موقفه من الواقعة

لقد انخرقت بالواقفة السبل من جراء الاستئثار بالأموال، وأخذوا يلبسون أطماعهم رداء المبدئية، فقد ران زخرف الحياة على قلوبهم وتنكروا للرضا عليه السلام كإمام شرعي مفترض الطاعة، بمزاعم واهية نسجوها من خيالهم لتبرير استئثارهم بالحقوق، ولم تقتصر ضلالتهم على أنفسهم بل عملوا جاهدين على حرف الشيعة عن الإمام الحق وتأليبهم عليه، من خلال أسلوب «الترغيب والترهيب».

عن يونس بن عبد الرحمن، قال:

مات أبو الحسن عليه السلام وليس من قمّمه أحد إلا وعنده المال الكثير فكان ذلك سبب وقفهم وجحودهم لموته، وكان عند زياد القندي سبعون

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢١٩، ح ٤، باب (٤٦).

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢١٨، ح ٢، باب (٤٦).

ألف دينار، وعند علي بن أبي حمزة ثلاثون ألف دينار.

قال: فلما رأيت ذلك وتبين الحق وعرفت من أمر أبي الحسن الرضا عليه السلام ما علمت تكلمت ودعوت الناس إليه، قال: فبعثنا إلي وقالوا لي: ما يدعوك إلى هذا؟! إن كنت تريد المال فنحن نغنيك! وضمنا لي عشرة آلاف دينار، وقالوا لي: كف! فأبيت، وقلت لهم: إنا روينا عن الصادقين عليهم السلام أنهم قالوا: « إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يظهر علمه، فإن لم يفعل سلب منه نور الإيمان، وما كنت لأدع الجهاد في أمر الله على كل حال. فناصراني وأضمرنا لي العداوة » ^(١).

لقد أسقط إمامنا القناع عن وجه الواقفة وأبطل المزاعم وقشع الشبهات التي تذرثوا بها، فقد حاول الواقفة التشكيك بإمامة الرضا عليه السلام تحت ستار كثيف من الزيف، وسوف نقف هنا على أبرز الشبهات التي أثاروها، والردود التي أوردتها عليهم الإمام الرضا عليه السلام من خلال النقاط التالية:

أولاً: شبهة الواقفة بأن الإمام موسى الكاظم عليه السلام لم يمت

تمسك الواقفة بشبهة واهنة مفادها عدم موت الإمام الكاظم عليه السلام، وضربوا بالأخبار المؤكدة لموته عليه السلام عرض الجدار، ولم يعطوا لنا صاغية لكل من يخبرهم بوفاته ولو جاءت من أقرب المقربين إليه كولد الرضا عليه السلام؛ فقد كان عثمان بن عيسى، وهو الموكل من قبل الإمام الكاظم عليه السلام بمصر، وعنده مال كثير وست جوارى، فبعث إليه أبو الحسن الرضا عليه السلام فيهن وفي المال، فكتب إليه: أن أباك لم يمت!، فكتب إليه

(١) علل الشرائع / الشيخ الصدوق ١: ٢٧٦، ح ١، باب (١٧١).

الرضا عليه السلام: « إن أبي قد مات، وقد اقتسمنا ميراثه ».

فكتب إليه: ان لم يكن أبوك مات فليس لك من ذلك شيء، وإن كان قد مات على ما تحكي فلم يأمرني بدفع شيء إليك، وقد أعتقت الجواري وتزوجتهن ^(١).

قال الصدوق: لم يكن موسى بن جعفر عليه السلام ممن يجمع المال، ولكنه حصل في وقت الرشيد وكثر أعداؤه ولم يقدر على تفريق ما كان يجتمع إلا على القليل ممن يتق بهم في كتمان السر، فاجتمعت هذه الأموال لأجل ذلك، على أنها لم تكن أموال فقراء وإنما كانت أموالاً تصله بها مواليه لتكون له إكراماً منهم له وبرا منهم به ^(٢).

لقد تمسك هؤلاء بشبهة ذرائعية تواصلوا عليها وأشاعوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، واستخدموا لذلك أساليب وفنون:

عن علي بن رباط، قال: قلت لعلي بن موسى الرضا عليه السلام: ان عندنا رجل يذكر أن أباك عليه السلام حي، وأنت تعلم من ذلك ما تعلم!! فقال عليه السلام: « سبحان الله مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يمت موسى بن جعفر عليه السلام؟! بلى والله لقد مات وقسمت أمواله ونكحت جواريه ^(٣) ».

ولما أصر الواقعة على العناد واشتد أوار فتنتهم وغلا مرجلها، لعنهم الإمام الرضا عليه السلام ووصمهم بالكذب، وكان ينمّي وعي أصحابه ويبين لهم حقيقة الحال: عن جعفر بن محمد النوفلي، قال: أتيت الرضا وهو بقنطرة

(١) علل الشرائع ١: ٢٧٦، ح ٢، باب (١٧١).

(٢) علل الشرائع ١: ٢٧٦، ح ٢، باب (١٧١).

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٩٠، ح ٩، باب (٨).

اربق^(١) فسلمت عليه ثم جلست وقلت: جعلت فداك ان أناسا يزعمون أن أباك حي، فقال: « كذبوا لعنهم الله، ولو كان حيا ما قسم ميراثه ولا نكح نساؤه، ولكنه والله ذاق الموت كما ذاقه علي بن أبي طالب عليه السلام »^(٢).

ثانيا: زعمهم بأن الرضا عليه السلام ليس له ولد

سقط الواقعة تحت حوافر الشك والريب لما وجدوا أن الإمام الرضا عليه السلام لم يلد له مولود مع تقدمه في السن، ولم يكن الإمام كما زعموا مسنا وإنما فارق شرخ الشباب ببضع سنين. وعلى أية حال فإن إمامنا الذي كان ينظر للغيب من وراء ستر رقيق قد رد هذه الدعوى وكشف عن أنه سيرزق ولدا يكون حجة على الخلق من بعده، وإخباره هذا الذي صدقته الأيام يعد أحد معاجزه الباهرة.

عن ابن أبي نجران وصفوان، قالاً: حدثنا الحسين بن قياما، وكان من رؤساء الواقعة، فسألنا أن نستأذن له على الرضا عليه السلام ففعلنا، فلما صار بين يديه قال له: أنت إمام؟ قال: « نعم »، قال: إني أشهد الله أنك لست بإمام! قال: فنكت طويلا في الأرض منكس الرأس ثم رفع رأسه إليه، فقال له: « ما علمك أنني لست بإمام؟ ».

قال: لأتأ روينا عن أبي عبد الله عليه السلام: « أن الإمام لا يكون عقيما »، وأنت قد بلغت هذا السنّ وليس لك ولد.

قال: فنكس رأسه أطول من المرّة الأولى ثم رفع رأسه فقال: « أشهد الله أنه لاتمضي الأيام والليالي حتى يرزقني الله ولدا متي ».

(١) من نواحي رام هرمز في خوزستان، انظر: معجم البلدان ٢: ١٣٧.

(٢) اعلام الوری ٢: ٥٩، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٣٣، ح ٢٣، باب (٤٧).

قال عبد الرحمن بن أبي نجران: فعددنا الشهور من الوقت الذي قال فوهب الله له أبا جعفر عليه السلام في أقل من سنة، قال: وكان الحسين بن قياما هذا واقفا في الطواف فنظر إليه أبو الحسن عليه السلام فقال له: « ما لك حزيناً لله »، فوقف عليه بعد الدعوة^(١).

لقد كان الواقعة من أشد الناس عنادا للحق لأنهم لا يؤمنون بكل شيء خالف عقيدتهم ولو كان بينا كالشمس في رابعة النهار. ويكفي أنهم أنكروا عشرات الأدلة والبيانات والشهادات المتواترة على موت الإمام الكاظم وتشيعه وتغسيله وتكفينه ودفنه عليه السلام.

ومن هنا لعنهم الإمام الرضا عليه السلام كما لعن الغلاة من قبل يروى أنه سئل عن الواقعة، فقال: « (ملعونون أينما تُقفوا أخذوا وقُتلوا تقتيلا * سبَّه الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)^(٢) والله إن الله لا يبدلها حتى يقتلوا عن آخرهم »^(٣).

ومن الأهمية بمكان القول بأن التشيع قد انبسط في أيام إمامنا ورجع إلى إمامته أكثر الضالين بعد وفاة أبيه وجده عليه السلام، وقد وجدنا أن بعض كبار أقطاب الواقعة قد تابوا إلى رشدهم فاستبصروا بحجر مراسلتهم للإمام عليه السلام أو مقابلتهم العابرة لـ هـ، منهم: أبو نصر البرنظي^(٤)، وعبد الله بن المغيرة^(٥).

(١) اعلام الوری ١: ٥٧، الفصل الثالث، بحار الأنوار ٤٩: ٤٩، ح ١٣، باب (٣).

(٢) سورة الأحزاب: ٣٣ / ٦١ و ٦٢.

(٣) المناقب / ابن شهر آشوب ٤: ٣٥٨.

(٤) الخرائج والجرائح ٢: ٦٦٢، ح ٥، فصل: في أعلام الإمام الرضا عليه السلام.

(٥) الخرائج والجرائح ١: ٣٦٠، ح ١٥، باب (٩).

الفصل السادس

ولاية العهد وآثارها على حياة الإمام

تعتبر ولاية العهد من أكبر وأخطر المحطات السياسية في حياة الإمام الرضا عليه السلام، فقد كانت تحولاً مفاجئاً في السلوك السياسي العباسي تجاه العلويين، فاجأ رجال الفكر والسياسة في زمانه وأثار موجة من ردود الفعل المختلفة، أخذت تتسع دائرتها إلى وقتنا الحاضر، فكل من يتناول حياة الإمام الرضا عليه السلام يتطرق بالبحث والتحليل لهذه القضية الحساسة في الفكر السياسي الاسلامي لكونها تشكل سابقة فريدة في السلوك السياسي العباسي عندما يتنازل الحاكم للمعارضة ويعرض عليها تقاسم أعباء الحكم، حملها البعض على نحو من الجدية وأثنى على المأمون غاية الثناء، ووصفه بالتجرب والنزاهة.

على الرغم من كونها مسرحية سياسية أجاد المأمون نسج فصولها وتوزيع أدوارها وحسن توقيتها. كما يستفاد من تصريحات ولي العهد نفسه عليه السلام بعيداً عن تحليلات أولئك المتأخرين، وبدورنا سوف نستعرض خلفيات ولاية العهد، والعوامل الدافعة للمأمون على تغيير السياسة القمعية العباسية تجاه العلويين عموماً وشيعة أهل البيت عليهم السلام على وجه

الخصوص، وتتعرف على موقف الإمام الرضا عليه السلام من ولاية العهد، ومن ثم نستعرض آثارها في شهادته.

المبحث الأول: خلفيات ولاية العهد

اتبع العباسيون - منذ البداية - سياسة مخادعة مع العلويين، فقد رفعوا في أثناء صراعهم مع الأمويين شعاراً تضليلياً هو «الرضا من آل محمد» دون أن يحددوا مضمونه، وتمسكوا بالسرية التامة، فلم يفصحوا عن اسم الإمام حتى لا يحس العلويون ولا قاعدتهم العريضة في خراسان بخروج الأمر منهم.

وبعد وصولهم للسلطة تنكر العباسيون للدعم الكبير والمساندة الواسعة التي أبدتها العلويون وقاعدتهم، وفوق ذلك أذاقوهم ألوان العذاب، وعملوا على الحطّ من شأنهم، وإبعادهم عن الحياة السياسية، ووضعوا الرقابة المشددة عليهم، ومنعوا الناس من الاتصال بهم فضلاً عن أطلوا دمه أو هلك في طواميرهم المظلمة.

وضرب المنصور العباسي المثل الأقسى في معاملة العلويين، فقد أذاقهم جميع صنوف العنف والجور والعذاب، وزج جمع منهم في سجن مظلم لا يُعرف فيه الليل من النهار حتى باتوا لا يعرفون وقت الصلاة، فجزأوا القرآن الكريم خمسة أجزاء، فكانوا يصلون الصلاة على فراغ كل واحد منهم لجزئه^(١).

(١) انظر: مروج الذهب / المسعودي ٣: ٢٢٥.

وأمر المنصور عماله بمصادرة جميع أموالهم وبيع رقيقهم، وقد صادر بالفعل أموال بني الحسن وكثير من العلويين وبني هاشم^(١).

وأمر المنصور أيضا باحضار محمد بن إبراهيم بن الحسن المثني، وكان آية في بهاء وجهه وجماله، فالتفت نحوه وقال ساخرا: أنت المسمى بالديباج الأصفر؟ فقال: نعم. قال الطاغية: أما واللّه لأقتلنك قتلة ما قتلها أحدا من أهل بيتك. ثم أمر باسطوانة مبنية ففرغت وأدخل فيها، فبنيت عليه وهو حي!^(٢)

لقد أطلق هذا الطاغية يده في استخدام القوة ضد العلويين، واتبع معهم سياسة «السيف والنطع» وخاض ضدهم حربا ليس لها هوادة ولا يخف لها أوار، فقد كَبّم أفواههم وزجهم في السجون، وكان يتميز من الغيظ ضد كل علوي، فمرت الأحداث تنفث سمومها، وتبعث بلهبها لتكوي آل علي بكل ما يشيب الطفل. وكان أبو جعفر المنصور يخشى على منصبه مما وصل إليه الإمام الصادق عليه السلام من علو المنزلة وسمو المكانة بين المسلمين، حتى أن المنصور كان يصفه بأنه (الشجى المعترض حلقه)^(٣). وقد استدعى هذا الطاغية إمامنا الصادق عليه السلام إلى العراق، ليوقفه بين يديه، يريد بذلك استنقاصه أمام أعين الناس والتصغير من شأنه. ولكن ما زاده ذلك إلا علوا إذ كان اقبال الناس على الإمام الصادق عليه السلام وشدهم الرحال إليه قد أثار مخاوف العباسيين وابتوا يلوحون بالعصا العباسية

(١) مقاتل الطالبين / أبو الفرج الأصبهاني: ٢٧٣.

(٢) تاريخ الطبري ٩: ٣٩٨.

(٣) انظر: تاريخ يعقوبي ٣: ١١٧.

لشيئته.

واتبع الهادي العباسي مع العلويين سياسة تقوم على العنف بخلاف المهدي الذي حاول استرضاء العلويين فألح الهادي في طلبهم (وأخافهم خوفا شديدا وقطع ما كان المهدي يجريه عليهم من الأرزاق والأعطية، وكتب إلى الآفاق في طلبهم وحملهم) ^(١).

ومضى الهادي إلى آخر الشوط فازداد تعطشا لدماء العلويين، فجهد على استئصال شأفة شبابهم كما حدث في كارثة «فخ» التي اقترف فيها العباسيون جرائم ضاهت ما اقترفه الأمويون في كربلاء، فقد رفعوا رؤوس العلويين على الرماح وأطافوا بأسراهم في الأقطار وتركوا جثث قتلاهم ملقاة على الأرض مبالغة منهم في التشقي والانتقام من العلويين. الذين وقعوا تحت وطأة ظلم صارخ ووحشية مروعة، حتى قال الشاعر:

يا ليت جور بني مروان عاد لنا وليت عدل بني العباس في النار
يروى الطبري: أن الأسرى العلويين كانوا مقيدون في السلاسل وفي أيديهم وأرجلهم الحديد، وأمر الطاغية الهادي بقتل الأسرى فقتلوا وصلبوا ^(٢). ويضيف المسعودي قائلا: إن الجثث ظلت ثلاثة أيام دون أن توارى في الثرى حتى أكلتها الحيوانات الضارية والطيور الجارحة ^(٣).

وقد رفع الطاغية هارون من وتائر الضغط على العلويين، وكان يقذفهم بالشر والشر، ولم يترك حجرا على حجر من أجل الظفر

(١) تاريخ اليعقوبي ٣: ٤٠٤.

(٢) تاريخ الطبري ١٠: ٢٩.

(٣) مروج الذهب / المسعودي ٣: ٣٣٦.

برجالهم، فاتبع - اضافة لما تقدم - آليات الإقصاء والاستبعاد والقمع، وكان نصيب الإمام موسى الكاظم عليه السلام من ظلمه كبيرا كما أسلفنا، وعموما فقد كان العلويون يعانون الأمرين من هارون حتى (ركنوا إلى الهدوء في أواخر عهده وطول عهد ولده الأمين، ولكن بدأت بوادر قيام حركة جديدة من حركات الشيعة في مطلع عهد المأمون) ^(١).

وبالفعل فقد تزعم محمد بن إبراهيم بن طباطبا وداعيته أبو السرايا في أواخر سنة ١٩٩ هـ - حركة ثورية ضد حكم المأمون ^(٢)، وفي السنة التالية تزعم إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق عليه السلام وحركة أخرى في اليمن ضد السلطة العباسية ^(٣)، كما تمرد الحسين بن الحسين الأفطس بمكة أيضا ^(٤). واتصلت حركته بالدعوة إلى زعامة محمد بن الإمام جعفر الصادق، ولقّبه أنصاره بأمرير المؤمنين ^(٥).

سياسة المأمون مع العلويين:

إن تحوّل السياسة العباسية تجاه العلويين في زمن المأمون لم يتم صدفة ولم ينطلق من فراغ، كما لم يكن أمرا سهلا لدقة الظروف وخطورة الاحتمالات، ولكن لهذا التحول عوامل عديدة نستطيع أن نصنفها إلى قسمين أساسيين، هما:

-
- (١) جهاد الشيعة / الدكتورة سميرة الليثي: ٣١٩.
 - (٢) تاريخ الطبري ٨: ٥٢٨ - ٥٣٥.
 - (٣) تاريخ الطبري ٨: ٥٣٥ - ٥٣٦.
 - (٤) تاريخ الطبري ٨: ٥٣٦ - ٥٣٨.
 - (٥) تاريخ الطبري ٨: ٥٣٨ - ٥٤٠.

أولا - العوامل الذاتية:

ونقصد بها تلك العوامل التي تفاعلت في نفس المأمون ودفعته إلى تغيير السياسة العباسية الظالمة تجاه العلويين. وهنا يورد المؤرخون والمحدثون عوامل عديدة محتملة كان لها دور كبير في التغيير المذكور، وهي:

١ - دعوى ميول المأمون للتشيع:

يرى البعض أن منشأ هذا التحول في مسار السياسة العباسية تجاه العلويين في زمن المأمون يعود إلى ميل ديني عاطفي للمأمون تجاه العلويين، وأنه كان ينظر إلى علي بن أبي طالب عليه السلام نظرة تقدير، ويرى أنه أحق بالخلافة من باقي الصحابة. ونتيجة لذلك كان يتجنب إراقة دماء العلويين، ولا يريد أن يذهب مذهب أسلافه العباسيين في اضطهاد الشيعة، كما أنه كان يود التقريب بين فرعي البيت الهاشمي من علويين وعباسيين، ويضع حدا للعداء الطارىء بين الطرفين.

يرى السيوطي أن الذي حمل المأمون على ذلك هو إفراطه في التشيع، حتى أنه هم أن يخلع نفسه عن الخلافة ويسلمها للرضا عليه السلام، ويروي السيوطي: أن المأمون أجاب عن سؤال وجهه أحدهم إليه عن سبب عطفه على العلويين، فقال: (إنما فعلت ما فعلت لأن أبا بكر لما ولى لم يول أحدا من بني هاشم شيئا، ثم عمر، ثم عثمان كذلك، ثم ولى علي عليه السلام عبد الله بن عباس البصرة، وعبيد الله اليمن، وسعيدا مكة، وقتم البحرين، وماترك أحدا منهم حتى ولاه شيئا، فكانت هذه في أعناقنا

حتى كافأته في ولده بما فعلت) (١).

وذات الرأي ينقله صاحب الفخري: من أن زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس قد سألت المأمون عن سبب تحويله الخلافة من العباسيين إلى بيت علي فأجاب: (ما رأيت أحدا من أهل بيتي حين أفضى الأمر إليهم كافوه على فعله في ولده - أي في ولد العباس -، فأحببت أن أكافيه على إحسانه) (٢).

وقد أورد الشيخ الصدوق روايات تعزز هذا الاعتقاد وتدل على ميل المأمون للتشيع: عن سفيان بن نزار قال: كنت يوما على رأس المأمون، فقال: أتدرون من علمني التشيع؟ فقال القوم جميعا: لا والله ما نعلم.

قال: علمنيه الرشيد! قيل له: وكيف ذلك، والرشيد كان يقتل أهل هذا البيت! قال: كان يقتلهم على الملك، لأن الملك عقيم (٣). ثم روى لهم كيف أن هارون قد قام للكாظم عليه السلام إجلالا وإعظاما لما دخل عليه وقبّل وجهه وعينيه وأخذ بيده حتى أجلسه صدر المجلس، وأن المأمون سأل والده هارون عن ذلك فقال: هذا إمام الناس وحجة الله على خلقه وخليفته على عباده.. وأنا إمام الجماعة في الظاهر والغلبة والقهر، وموسى بن جعفر إمام حق، والله يابني انه لأحق بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مني ومن الخلق جميعا،

(١) تاريخ الخلفاء / السيوطي: ٣٠٧ و ٣٠٨.

(٢) الفخري في الآداب السلطانية / ابن الطقطقا: ٢٠٠.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٨٤، ح ١١ باب (٧).

والله لو نازعتني هذا الأمر لأخذت الذي فيه عيناك، فإن الملك عقيم^(١).
وعن الريان بن شبيب، قال: سمعت المأمون يقول: ما زلت أحب أهل البيت عليه السلام
واظهر للرشيد بغضهم تقريبا إليه. فلما رأيت أبي هارون يُكرم الكاظم عليه السلام قلت له: لقد
رأيتك عملت بهذا الرجل شيئا مارأيتك فعلته بأحد من أبناء المهاجرين والأنصار ولا بني
هاشم، فمن هذا الرجل؟! فقال: يا بني هذا وارث علم النبيين، هذا موسى بن جعفر بن
محمد عليه السلام إن أردت العلم الصحيح فعند هذا. قال المأمون: فحينئذ انغرس في قلبي محبتهم^(٢).

٢ - نذر المأمون:

وهناك من يُرجع هذا التحول إلى النذر الذي قطعه المأمون على نفسه بأنه إذا ظفر بأخيه
المخلوع فإنه يُخرج الخلافة إلى أفضل آل أبي طالب.
وهذا العهد يستدعي - بطبيعة الحال - الإحسان إلى العلويين. وفي هذا الصدد يروي
الاصفهاني: أن المأمون كان خلال صراعه مع أخيه الأمين قد عاهد الله أن ينقل الخلافة إلى
أفضل آل أبي طالب، وان علي الرضا هو أفضل العلويين^(٣). ويعزز ذلك ما رواه الصدوق
بأن المأمون قال: (فلما وفى الله تعالى بما عاهدته عليه أحببت أن أفي لله بما عاهدته، فلم أر
أحدا أحقّ بهذا الأمر من أبي الحسن الرضا عليه السلام). والشيخ الصدوق يفسر إقدام المأمون
على دعوة الرضا عليه السلام لقبول ولاية العهد بناء على هذا النذر^(٤).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٨٤، ح ١١ باب (٧).

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٨٧، ح ١٢ باب (٧).

(٣) مقاتل الطالبين: ٥٦٣.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٧٦ - ١٧٧، ح ٢٨ باب (٤٠).

٣ - دعوى حب المأمون للعفو وكرهيته للانتقام:

والبعض الآخر يُرجع هذا التحول إلى عامل نفسي، فيدّعي أن المأمون قد اشتهر بالعفو ومقت الانتقام وكان يكره إراقة الدماء، ومن دلائل ذلك معاملته السمحة للعلويين الذين ثاروا ضده، فقد عفا عن محمد بن محمد بن زيد وأسكنه دارا، كما عفا عن محمد بن جعفر الصادق واشترك في تشييع جنازته وقام بسداد ديونه^(١). كما عفا المأمون أيضا عن عبد الرحمن بن أحمد العلوي الذي أعلن الثورة في بلاد اليمن^(٢). وقد فات هؤلاء بأن المأمون قد قتل أخاه وصلب جثته، فكيف والحال هذه أن نقتنع بحبه للعفو وكرهه لإراقة الدماء؟! وهناك رأي مفاده أن المأمون عرف الحق لأهله وتنكر لسيرة الماضين من آباءه الذين أمعنوا في ظلم أهل البيت عليهم السلام قتلا وسما وتشريدا، وذلك بناء على رواية أوردها الصدوق عن أحمد بن محمد بن اسحاق، قال: حدثني أبي قال: لما بويع الرضا عليه السلام بالعهد اجتمع الناس إليه يهتئون، فأومى إليهم فأنصتوا، ثم قال: «.. بسم الله الرحمن الرحيم، إن أمير المؤمنين عضده الله بالسداد ووقفه للرشاد عرف من حقنا ما جهله غيره، فوصل أرحاما قطعت، وأمّن نفوسا فرغت، بل أحيها وقد تلفت، وأغناها إذ افتقرت، مبتغيا رضا رب العالمين..»^(٣).

(١) مقاتل الطالبين: ٥٤١، والفخري في الآداب السلطانية: ١٦٥.

(٢) تاريخ الطبري ٧: ١٦٨ - ١٦٩.

(٣) عقيدة الشيعة الإمامية / هاشم معروف الحسني: ١٦١ و ١٦٢، والرواية في عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥٧، ح ١٧، باب (٤٠).

ثانيا: العوامل الموضوعية:

ان قراءة معمقة لما بين سطور أحداث تلك الفترة تكشف لنا عن تفاعل عوامل موضوعية عديدة دفعت المأمون إلى التقرب من العلويين وتنفيس الاحتقان بين البيتين العلوي والعباسي. ومن هذه العوامل:

١ - **تعاطف أهل خراسان:** ومن الطبيعي والحال هذه أن يأخذ المأمون هذا التعاطف بعين الاعتبار، لذلك (كانت البيعة لعلّي الرضا بولاية العهد ترضي مشاعر أهل خراسان إرضاء تاما، ولاشك أن ذلك الدافع كان في مقدمة الدوافع التي حدثت بالمأمون إلى البيعة لهذا الزعيم العلوي بولاية عهده) ^(١).

فهنالك من يرى بأن المأمون حاول أن يتقرب إلى العلويين مدفوعا في ذلك بتأثير الفضل بن سهل الذي أشار على المأمون أن يتقرب إلى الله عزوجل إلى رسوله ﷺ بصلته رحمه بالبيعة بالعهد لعلّي بن موسى الرضا عليه السلام ليمحو بذلك ماكان من أمر الرشيد فيهم، وماكان يقرر على خلافه في شيء .. ^(٢).

وكان الرأي العام في ذلك الوقت يعتبر أمر البيعة للرضا عليه السلام من تدبير الفضل بن سهل: عن الريان بن الصلت قال: أكثر الناس في بيعة الرضا من القواد والعامّة ومن لم يحب ذلك، وقالوا: ان هذا من تدبير الفضل بن سهل ذي الرياستين ^(٣).

(١) جهاد الشيعة / الدكتورة سميرة الليثي: ٣٥٠.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥٨، ح ١٩، باب (٤٠).

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٦٢، ح ٢٢، باب (٤٠).

وهناك أخبار رواها الصدوق تعزّ هذا الاعتقاد، وتسنده إلى مصادر تاريخية متقدمة، فقد نقله الصدوق عن أبي علي الحسين بن أحمد السلامي، في كتابه الذي صنفه في أخبار خراسان ^(١) ..

ومما يدعم هذا الرأي ما رواه الصدوق من أن ذا الرياستين قال للمأمون: (ان ذنبي عظيم عند أهل بيتك وعند العامة والناس يلومونني بقتل أخيك المخلوع وبيعة الرضا عليه السلام ولا آمن السعاة والحساد وأهل البغي ..) ^(٢).

وبالمقابل هناك روايات تستبعد ذلك وتتنكر لدور ذي الرياستين في احداث التحول المذكور، لكون الفضل بن سهل من صنائع البرامكة الذين ناصبوا العداة لأهل البيت عليهم السلام وألبوا الحكام العباسيين عليهم، روى الصدوق: أن ذا الرياستين قد أظهر عداوة شديدة لأبي الحسن الرضا عليه السلام وحسده على ما كان المأمون يفضّله به ^(٣). وهناك شاهد آخر يصب في هذا الاتجاه، فقد روى الصدوق أن المأمون قد أنكر صراحة دور الفضل بن سهل المظنون، وذلك لما بلغه أن الناس يتحدثون بذلك، قال للريان: (ويحك ياربان أيجسر أحد أن يجيء إلى خليفة وابن خليفة قد استقامت له الرعية والقواد واستوت له الخلافة، فيقول له: ادفع الخلافة من يدك إلى غيرك؟ أيجوز هذا في العقل؟ .. لا والله ما كان كما يقولون) ^(٤).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٧٦، ح ٢٨، باب (٤٠).

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٧٣، ح ٢٤، باب (٤٠).

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٦٥، ح ٢٢، باب (٤٠).

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٦٣، ح ٢٢، باب (٤٠).

ويمكن الجمع بين الرأيين المتعارضين باحتمال استشارة المأمون لذي الرياستين بشأن الإمام الرضا وموافقة الأخير له بعد أن رأى ميل المأمون لذلك في الظاهر، فلم يجب مخالفته، وحين استبان له الواقع أعرب عما كان يكنه من عداة لأهل البيت عليه السلام.

٢ - عداة البيت العباسي للمأمون:

وهناك من تتبع المجرى العريض لهذا التطور وعد من العوامل التي دفعت المأمون إلى التقرب من البيت العلوي وشيعتهم مالمسه من عداة البيت العباسي له. يذكر الطبري من بين أحداث سنة ٢٠١ هـ - ما كان (من مراودة أهل بغداد منصور بن المهدي على الخلافة) (١). وقد أمتنع منصور المذكور عن ذلك ولكنه قبل أن يصبح أميراً على بغداد. إلى جانب عداة إبراهيم بن المهدي وغيره من العباسيين للمأمون (٢)، وقد أعلن أهل بغداد عصيانهم للحسن بن سهل والي المأمون على بلاد العراق (٣). وهذا الأمر غير صحيح لحصول تلك الأحداث بعد قتل الأمين وتقرير المأمون إلى التشيع في الظاهر.

٣ - فشل المعالجة القمعية بحق العلويين:

قد يكون أحد العوامل السالفة الذكر أو بعضها قد أثر في نفس المأمون ودفعه إلى انتهاج سياسة جديدة مع العلويين، ولكن يبدو لنا أن القضية أعمق من ذلك بكثير، فالمأمون وقد عُرف بالحنكة السياسية

(١) تاريخ الطبري ٧: ١٣٢.

(٢) انظر: تاريخ الخلفاء / السيوطي: ٢٥٠.

(٣) البداية والنهاية / ابن الاثير: ١٠: ٢٤٧.

فأدرك أن نتائج المعالجة القمعية للشيعنة لم تقتصر على الفشل فقط، وإنما كانت تخلياً^١ للاتجاهات الثورية الرافضة للحكم العباسي بمزيد من المبررات للانتشار والاستمرار، وعليه فالمعالجة القمعية غير مجدية بل تزيد نار الخلاف تأججاً، من هنا أوقف عمليات المطاردة والإبادة ضدهم وعمل على تصفية الجو المتوتر الذي خلّفته سياسة أبيه معهم، كما أنه أراد القضاء على تدمير العلويين وإيقاف ثوراتهم المستمرة، وتساعد مسلسل التطبيع معهم حتى بلغ ذروته بمبايعة الإمام الرضا عليه السلام زعيم العلويين بولاية العهد، وقد اوحى المأمون بانتقال السياسة العباسية إلى مدار جديد يعيد فيه الحق إلى نصابه. وعليه فالعامل السياسي يعد من أقوى العوامل في تفسير التحول الذي أحدثه المأمون في السياسة العباسية مع المعارضة العلوية.

يقول العلامة المجلسي: أن المأمون كان أوّ^٢ أمره مبنياً على الحيلة والخديعة لإطفاء نائرة الفتن الحادثة من خروج الأشراف والسادة من العلويين في الأطراف، فلما استقر أمره أظهر كيده^(١).

ومما يعزز ذلك أن عهد المأمون قد حفل بكثير من حركات العلويين، وكانت الحركة الشيعية تزداد انتشاراً حتى دب التشيع في أركان الدولة، من هنا أحس المأمون بأن الخطر قد أحرق به، فحاول الإمساك بزمام الأمور في اللحظة الحرجة التي كان يواجهها من تعاظم قوة العلويين، في مقابل الانقسام الخطير في صفوف العباسيين، فوجد من الحكمة أن يتقرب من العلويين وبلغ تقربه ذروته باستدعاء الإمام

(١) انظر: بحار الأنوار ٤٩: ٣١٣.

الرضا عليه السلام وإناطة ولاية العهد به.

نحن لانغض الطرف عن تأثير عدد من العوامل الذاتية والموضوعية التي ساهمت بنحو أو آخر في إحداث التحول المفاجيء في مسار السياسة العباسية تجاه المعارضة العلوية المتعاضمة، ولكننا نعيد التأكيد على أن المأمون قد استوعب حجم المتغيرات الداخلية، وعرف أن ميزان القوى أخذ يميل لصالح العلويين، وبعد أن أدرك عقم المعالجة القمعية أخذ بالتقرب منهم، وفق مخطط مدروس بعناية، وليس على نحو عرضي. والشيعنة بدورهم قد أدركوا أبعاد هذا المخطط.

تقول الدكتورة نبيلة عبد المنعم داود: «إن البيعة ذاتها لم تقرب جميع العلويين من المأمون، ولكنها أرضت قسما منهم فقط»^(١). وتعزز هذا الرأي الدكتورة سميرة الليثي، فتقول: «لم تكن البيعة لعللي الرضا ترضي نفوس الشيعة، ولاتقنعهم بالولاء للمأمون، فقد اعتبرت الشيعة هذه البيعة وسيلة لتسكين خواطرها، ودفعها إلى الركون إلى الهدوء والسلام، بعد أن تعددت الحركات العلوية في عهد المأمون»^(٢).

المبحث الثاني: موقف الإمام الرضا من ولاية العهد:

إذا أمعنا النظر في النصوص والروايات الواردة بخصوص موقف الإمام الرضا عليه السلام من ولاية العهد نجد أن الإمام قد رفض بشدة العروض التي

(١) نشأة الشيعة الإمامية: ٢٣١.

(٢) جهاد الشيعة: ٣٦٥ - ٣٦٦.

قدمها المأمون له لما تتضمنه من مخاطرة الاعتراف بشرعية الحكم القائم، ومساعدة المأمون على التخلص من مصاعبه في ظل وضع سياسي متفجر بالانتفاضات والثورات العلوية، وانقسام حاد في البيت العباسي كما أسلفنا.

لقد أدرك الإمام علي بن أبي طالب بأن المأمون ليس صادقاً في وعده، زيادة على أن هذا الوعد الكاذب غير قابل التحقق لعدم استقرار الوضع السياسي العباسي من جهة، وإمكانات الاغتيال المحتملة سواء من جهة المأمون نفسه أو من جهة معارضي ولاية العهد من العباسيين الذين يخشون على سلطتهم ومصالحهم عند انتقال الخلافة إلى العلويين.

زد على ذلك أن الإمام علي بن أبي طالب يعلم ما تنطوي عليه خطوة المأمون من خطورة برغبته باضفاء مسحة من الشرعية على حكمه وعدم اقتناعه بفكرة رد الحق إلى أهله التي يتبجح بها أمام الرأي العام. فالإمام يدرك جيداً أن المأمون أقدم على ما أقدم عليه تحت ضغط الضرورة، وأنه ينظر للبيعة هذه كخشبة خلاص من الطوفان الجارف الذي ينتظره، من هنا لم يعد يصعب علينا استنتاج رفض الإمام علي بن أبي طالب لقبول الخلافة أو ولاية العهد وهما خياران قد عرضهما المأمون عليه، ولم نستغرب تذرّع إمامنا بعلل كثيرة ومحاولته استغلال عامل الزمن بإطالة أمد المفاوضات، ولكن المأمون سد عليه جميع المنافذ من جهاتها، واستأصل أسباب الرفض التي أظهرها الإمام علي بن أبي طالب تحلّصاً مما طرح عليه، وفي النهاية أدرك علي بن أبي طالب أنه أمام واقع مفروض لا بد له من مواجهته بدلاً من الهروب منه أو تجاهله، خصوصاً وأن هامش المناورة قد ضاق عليه إلى درجة كبيرة، لذا قبل

على مضمض ولاية العهد، ولكن وفق شروط محددة تحكيها الرواية التالية:

عن محمد بن عرفة وصالح بن سعيد الكاتب الراشدي قالوا: .. فلما وافى - أي الرضا عليه السلام - مرو عرض عليه الامرة والخلافة فأبى الرضا عليه السلام ذلك، وجرت في هذا مخاطبات كثيرة وبقوا في ذلك نحواً من شهرين كل ذلك يأبى ابو الحسن الرضا عليه السلام ان يقبل ما يعرض عليه، فلما كثر الكلام والخطاب في هذا قال المأمون: فولاية العهد، فأجابه إلى ذلك، وقال له: « على شروط أسألها»، فقال المأمون: سل ما شئت، قالوا: فكتب الرضا عليه السلام: « إني أدخل في ولاية العهد على أن لا أمر ولا أنهي ولا أقضي ولا أغير شيئاً مما هو قائم، وتعفيني من ذلك كله»، فأجابه المأمون إلى ذلك وقبلها على هذه الشروط .. (١).

وسوف يتضح لنا من الشواهد التاريخية أن الإمام عليه السلام لم يقبل ولاية العهد إلا مضطراً وبعد التهديد والوعيد الشديدين، ويظهر أن المأمون أراد من الإمام عليه السلام أن يكون فريسة سهلة توقع نفسها في براثنه، ولكن الإمام عليه السلام كشف اللثام عن أهداف المأمون وما يختلج بنفسه من نوايا سيئة وأسقط القناع عن وجهه، حتى قال عليه السلام ذات يوم للمأمون: « .. إني لأعلم ما تريد » فقال المأمون وما اريد؟ قال: « الأمان على الصدق؟»، قال: لك الأمان. قال: « تريد بذلك أن يقول الناس ان علي بن موسى الرضا عليه السلام لم يزهده في الدنيا، بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة؟ » فغضب المأمون ثم قال: انك تتلقاني أبداً بما أكرهه وقد أمنت سطوتي، فبالله أقسم لئن قبلت ولاية العهد وإلا أجبرتك على ذلك،

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٦١، ح ٢١ باب (٤٠).

فإن فعلت وإلا ضربت عنقك.

فقال الرضا عليه السلام: « قد نُهاني الله تعالى أن ألقى بيدي إلى التهلكة، فإن كان الأمر على هذا فافعل ما بدا لك، وأنا أقبل ذلك على أن لا أولي ولا أعزل أحدا، ولا أنقض رسما ولا سنة، وأكون في الأمر من بعيد مشيرا»، فرضي منه بذلك وجعله ولي عهده على كراهية منه عليه السلام بذلك ^(٢).

وهكذا نجد أن إمامنا وجد نفسه أمام خيارين أحلاهما مر: إما القتل، أو القبول، فاقترح حلا توفيقيا، هو القبول المشروط. أراد أن يوحى للمأمون بأن الأسد قد يقع حبيسا ولكن لا يجعله الأسر عبدا، من هنا حدد شروطه بحيث لا تضيء الشرعية على الحكم القائم، فوجد المأمون نفسه مضطرا إلى قبولها.

كما أجرى امامنا حوارا اقتاعيا مع المأمون، وبدلا من اذعان الأخير للحق والمنطق احتكم إلى القوة ولوَّح بها، ولعل أوضح وأصرح تعبير عن ذلك ما جاء عن أبي الصلت الهروي: ان المأمون قال للرضا عليه السلام: فإني قد رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة وأجعلها لك وأبايعك. فقال له الرضا عليه السلام: « إن كانت هذه الخلافة لك، والله جعلها لك، فلا يجوز لك أن تخلع لباسا ألبسك الله وتجعله لغيرك، وإن كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز لك أن تجعل لي ما ليس لك»، فقال له المأمون: يابن رسول الله، فلا بد لك من قبول هذا الأمر. فقال: « لست أفعل ذلك طائعا أبدا»، فما زال يجهد به أياما حتى يئس من قبوله، فقال له: فإن لم تقبل الخلافة ولم تحب مبايعتي لك فكن

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥١، ح ٣، باب (٤٠).

ولي عهدي لتكون لك الخلافة بعدي^(١).

لقد أثار قرار القبول ردود أفعال مختلفة في الوسط الاسلامي، وخاصة الشيعي منه، وسط دهشة المدهوشين وسخط الساخطين وتربص المتربصين، وقد شرح الإمام عليه السلام لخص أصحابه ظروف ودوافع قبوله في مناسبات كثيرة، وردّ على الشبهات المثارة بهذا الخصوص، لاسيما وان «الرفض» لو حصل لتفهمه الخاص والعام، لأنه ينسجم مع وضعه العام كإمام معصوم وما تتبناه مدرسة أهل البيت عليهم السلام من مبادئ لا تقدر التعاون مع الحاكم الظالم وترفض إعطاء الشرعية له، ولكن «القبول» يحتاج إلى تفسير وتحليل وتهيئة الرأي العام لقبوله، من هنا جهد إمامنا بنفسه على شرح موقفه والملازمات والظروف التي أحاطت بقبوله كما رد الشبهات المثارة والتساؤلات المطروحة.

عن الريان بن الصلت، قال: دخلت على علي بن موسى الرضا عليه السلام فقلت له: يا بن رسول الله، الناس يقولون: انك قبلت ولاية العهد مع اظهارك الزهد في الدنيا! فقال عليه السلام: «قد علم الله كراهتي لذلك، فلما خير بين قبول ذلك وبين القتل، اخترت القبول على القتل، ويجهم! أما علموا أن يوسف عليه السلام كان نبيا ورسولا، فلما دفعته الضرورة إلى تولي خزائن العزيز «قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم» ودفعني الضرورة إلى قبول ذلك على إكراه وإجبار بعد الإشراف على الهلاك، على أبي ما دخلت في هذا الأمر إلا دخول خارج منه»^(٢).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥١، ح ١، باب (٤٠).

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥٠، ح ٢، باب (٤٠).

وليس ثمة عبارة يمكن أن تقنع الباحث بطبيعة الإمام عليه السلام في ولاية العهد أفضل من جملة « إني ما دخلت في هذا الأمر إلا دخول خارج منه » التي علل فيها قبوله لعرض المأمون، ذلك أن مجرد التهديد بالقتل - بما هو تهديد للحياة الشخصية - ليس سببا مقنعا وراء قبول الإمام عليه السلام بولاية العهد، فلا بد من البحث عن سبب أعمق من المحافظة على الحياة الشخصية وراء ذلك، وأوفق بشخصية الرضا عليه السلام كرجل لا تهمه حياته بقدر ما يهمه مصلحة الإسلام. وهو في العبارة المتقدمة قد وفر علينا عناء البحث وكشف بجلاء أنه خرج من العهد بمجرد دخوله فيه من خلال الشروط التي اشترطها، والتي حرص على مراعاتها والعمل بها على الرغم من محاولات المأمون المتكررة باشراكه في أعباء الحكم. وكان الإمام عليه السلام يذكره على الدوام بالشروط المتفق عليها، وكان يعي طبيعة الشرك التي ستصيب في طريقه وليس أقلها شأننا وخطرا محاولة إدخاله في جهاز حكم وادارة لم يشكلها هو، ولا يتلاءم مع توجهاته في الفكر والسياسة والأخلاق.

ومن الشواهد على ذلك ما جاء عن معمر بن خلاد، قال: قال لي ابو الحسن الرضا عليه السلام: « قال لي المأمون يوما: يا أبا الحسن، انظر بعض من تثق به نوليه هذه البلدان التي قد فسدت علينا، فقلت له: تفني لي وأفي لك، فاني دخلت فيما دخلت على أن لا أمر فيه ولا أنهي ولا أعزل ولا أولي ولا أشير حتى يقدمني الله قبلك، فو الله إن الخليفة شيء ما حدثت به نفسي » ^(١).

من جهة اخرى فإن الإمام عليه السلام لا ينظر لمصلحته الشخصية بقدر ما ينظر للمصلحة الإسلامية العليا، ولو فرضنا جدلا أن الإمام رفض

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٧٧، ح ٢٩، باب (٤٠).

الدخول في ولاية العهد فماذا يمكن أن يحدث؟ فبغض النظر عن القتل الذي ينتظره سوف يفتح بابا من البلاء على أتباعه وأهل بيته من القتل والمطاردة والتضييق وما إلى ذلك. أضف إلى ذلك أنه لو قتل - على أكثر الاحتمالات - فستعرض إمامة ولده الجواد وهو صغير إلى مخاطر جدية وهي في بدايتها، وعليه بات من السهل أن ندرك أن الإمام عليه السلام كان يوازن بين المعطيات والنتائج المترتبة على القبول والرفض، واضعا المصلحة الإسلامية العليا نصب عينه، فرجح القبول على الرفض.

ولا بد من الفات النظر إلى أن الإمام عليه السلام كان لا يتمكن أن يصرح بالعلة التامة لقبوله ولاية العهد حرصا على عدم كشفها للطرف الآخر وتحمل تبعات ذلك، ولكنه استعمل أسلوبا بارعا في تعليقه للقبول، وهو أسلوب «السوابق التاريخية» وترك للسامع أن يستنتج بنفسه ما تتضمنه من دلالات وما يكتنفها من إيجابيات، وخير شاهد على ذلك ما جاء عن محمد بن عرفة، قال قلت للرضا عليه السلام: يا بن رسول الله، ما حملك على الدخول في ولاية العهد؟ فقال: « ما حمل جدي أمير المؤمنين عليه السلام على الدخول في الشورى »^(١).

كان عليه السلام يضع المصلحة العليا للإسلام في جميع مواقفه، وكان يطور موقفه حسب الظروف المحيطة به وفق هامش المناورة المتاح له. ولذا نجد أن موقفه الأول من العرض هو الإباء الشديد والرفض، واعتل بعلة كثيرة، فما زال المأمون يكتابه ويسأله حتى علم أنه لا يكف عنه. وهناك شهادة مهمة لابي الصلت الهروي وكان من أقرب المقربين للإمام عليه السلام أقسم

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥٢، ح ٤، باب (٤٠).

فيها بأن الإمام لم يدخل العهد طائعا، قال: والله ما دخل الرضا عليه السلام في الأمر طائعا، ولقد حمل إلى الكوفة مكرها، ثم أشخص منها على طريق البصرة وفارس إلى مرو ^(٢). وتوجد شهادة جماعية من أهل المدينة، التي كان يسكنها الإمام عليه السلام - وأهل البيت أدرى بالذي فيه - تصور الحالة النفسية التي كان يعانها امامنا، وتكشف عن شدة الضغوط التي تعرض لها لكي يقبل ولاية العهد.

عن غياث بن أسيد، قال: سمعت جماعة من أهل المدينة يقولون: ملك عبد الله المأمون .. فأخذ البيعة في ملكه لعلي بن موسى عليه السلام بعهد المسلمين من غير رضاه، وذلك بعد أن هددته بالقتل وألح عليه مرة بعد أخرى، في كلها يأبى عليه، حتى أشرف من تأيئه على الهلاك، فقال عليه السلام: « اللهم انك نهيتني عن الالتقاء بيدي في التهلكة، وقد أكرهت واضطرت كما أشرفت من قبل عبد الله المأمون على القتل متى لم أقبل ولاية عهده، وقد أكرهت واضطرت كما اضطرو يوسف ودانيال عليه السلام قَبِل كل واحد منهما الولاية من طاغية زمانه ». ثم قبل ولاية العهد من المأمون وهو باك حزين ^(١).

فهذا النص يكشف عن درجة الضيق والإحراج والإكراه التي تعرض لها، كما يعزز أسلوب «السوابق التاريخية» الذي اتبعه في سبيل تبرير قبوله بولاية العهد، وكنا قد أشرنا سابقا بأنه علل حمله على القبول كما حمل جده أمير المؤمنين عليه السلام على الدخول بالشورى، وفي هذا النص يبرر اضطرابه كما اضطرو يوسف ودانيال عليه السلام على قبول الولاية من طاغيتي

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥٢، ح ٥ باب (٤٠).

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٨ و ٢٩، ح ١، باب (٣).

زمانهم.

وكان الإمام عليه السلام في كل مناسبة يكشف عما يجيش في نفسه من مشاعر الألم والحسرة ويعبر عن تهرمه وتدمره من هذه البيعة المفروضة، وتغلف وجهه سحابة من الحزن والمرارة: عن ياسر الخادم، قال: كان الرضا عليه السلام إذا رجع يوم الجمعة من الجامع وقد أصابه العرق والغبار رفع يديه، وقال: « اللهم إن كان خروجي مما أنا فيه بالموت فعجله إلي الساعة »، ولم يزل مغموما مكروبا إلى أن قبض^(١).

ومما زاد من وطأة الإحساس بالضيق والظلم أن المأمون دس عيون وآذانه لمعرفة تحركات الإمام وأخذ الجواسيس يحصون عليه أنفاسه، ويحجبون عنه شيعته ومواليه، فقد روى الصدوق أن هشام بن إبراهيم الراشدي الهمداني كان ينقل اخبار الرضا عليه السلام إلى ذي الرياستين والمأمون، فحظي بذلك عندهما، وكان لا يخفي عليهما من أخباره شيئا، فولاه المأمون حجابة الرضا عليه السلام فكان لا يصل إلى الرضا عليه السلام من أحب وضيق على الرضا عليه السلام وكان من يقصده من مواليه لا يصل اليه، وكان لا يتكلم الرضا عليه السلام في داره بشيء إلا أوردته هشام على المأمون وذوي الرياستين^(٢).

ولا يخفى ان من أهداف المأمون عزل الإمام عليه السلام عن شيعته ومواليه ووضع تحت الإقامة الجبرية في خراسان تحت نظر السلطة وسمعها، وعزله عن القاعدة الجماهيرية. وقد فشلت هذه السياسة فشلا ذريعا، فبدلا من

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٨، ح ٣٤، باب (٣٠).

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٦٤، ح ٢٢، باب (٤٠).

أن تتقلص شعبيته لمشاركته بالحكم ولإظهاره من قبل السلطة بأنه لم يكن زاهدا في الحكم، وانطلاق هذه الحيلة على البعض، فقد ازدادت شعبيته، وحاول حرق الحصار المفروض عليه فاستطاع التواصل مع أوساط لم تكن لتجرؤ على الاتصال به.

من جانب آخر حاول المأمون احراج الإمام عليّ بن أبي طالب أمام علماء الأديان والمذاهب والملل، والانتقاص من قدر ومنزلة الإمام واظهاره بمظهر العجز عن الإجابة فلما قدم علي بن موسى الرضا عليّ بن أبي طالب إلى المأمون أمر الفضل بن سهل أن يجمع له أصحاب المقالات مثل الجاثليق ورأس الجالوت ورؤساء الصّابئين والهريد الأكبر وأصحاب زردشت وقسطاس الرّومي والمتكلمين ليسمع كلامه وكلامهم، فجمعهم .. قال الحسن بن محمد النّوفلي: فلما مضى ياسر التفت الرضا عليّ بن أبي طالب إلينا، ثمّ قال لي: « يا نوفلي أنت عراقي، ورقة العراقي غير غليظة، فما عندك في جمع ابن عمّك علينا أهل الشرك وأصحاب المقالات؟ » فقلت: جُعلت فداك يريد الامتحان ويُحِبُّ أن يعرف ما عندك، ولقد بنى على أساس غير وثيق البنيان وبئس واللّه مابنى .. فقال لي: « يا نوفلي، أتُحِبُّ أن تعلم متى يندم المأمون؟ »، فقلت: نعم. قال: « إذا سمع احتجاجي على أهل التّوراة بتوراتهم، وعلى أهل الإنجيل بإنجيلهم، وعلى أهل الرّيبور بزبورهم، وعلى الصّابئين بعبرايتهم، وعلى الهرايدة بفارسيتهم، وعلى أهل الرّوم بروميّتهم، وعلى أصحاب المقالات بلُغاتهم، فإذا قطعت كلّ صنف ودحضت حُجّته وترك مقالته ورجع إلى قولي، علّم المأمون أنّ الموضوع الذي هو بسبيله ليس هو بمستحقّ له، فعند ذلك تكون النّدامة منه، ولا حول ولا قوّة إلا باللّه العلي

العظيم» ^(١).

ولما دحض الإمام عليه السلام حججهم وأفحمهم ازدادت مكانته عند العلماء وذاع صيته، وبذلك تجنب الإمام عليه السلام الوقوع في جميع النتائج السلبية لقبوله البيعة، فلم يمنح الحكم الشرعية المطلوبة، وقبله حال دون حدوث تغيير في القيادة لخط أهل البيت عليهم السلام في فترة حرجة، وكان من الممكن أن يؤدي امتناعه إلى دعاية واسعة النطاق ضده بزعم أنه فوت فرصة ثمينة لا تقدر بثمن، كما أن الرفض قد يؤدي إلى الفتنة والبلبلة داخل الكيان الشيعي، كأن يثار سؤال كبير: لماذا لم يقبل الخلافة أو ولاية العهد وقد عرضتا عليه؟! بدل السؤال الذي أثاره البعض بعد قبوله: لماذا قبل؟

أضف إلى ذلك أن الإمام عليه السلام قد حال دون حدوث موجة جديدة من الارهاب والمطاردة والقتل ضد العلويين من جديد، كما أحدث بقبوله انقسامًا حادًا في الصف العباسي لعدم قبول العباسيين بولاية العهد هذه خوفاً من انتقال الخلافة إلى البيت العلوي، وهكذا نجد ان اماننا قد نجح من نقل المواجهة من طابع الدفاع والتوقي إلى حالة هجومية تشمل التصدي^١ والاختراق والانطلاق حسب ما تسمح به الظروف، فترسخت الحالة الشيعية في زمانه واشتد ساعدها.

ونتيجة للمعطيات الايجابية تلك عمل المأمون على التخلص من هذا الوجود الذي أقلق عليه هدوءه، خصوصاً بعد أن أدرك بأن فصول الرواية التي أعدها من قبل قد اكتملت ولم تسفر عن النتائج المرجوة منها.

(١) التوحيد / الصدوق: ٤١٧، باب (٦٥).

المبحث الثالث: آثار ولاية العهد في شهادة الإمام الرضا عليه السلام:

هناك جملة من الروايات التي أخرجها الشيخ الصدوق في (عيون أخبار الرضا عليه السلام) والشيخ المفيد في (الإرشاد) صريحة كل الصراحة باضطلاع المأمون العباسي في جريمة قتل الإمام الرضا عليه السلام، وفي بعضها التصريح من الإمام عليه السلام بأن المأمون سوف يقتله بالسم، ومن هنا قال العلامة المجلسي في الردّ على بعض المشكّكين بهذه الحقيقة: «والحق ما اختاره الصدوق والمفيد وغيرهما من أجلّة أصحابنا أنه مضى عليه السلام شهيدا بسم المأمون»^(١). هذا، وقد أوردت تلك الروايات عللا عديدة تقف وراء تلك الجريمة الشنعاء، وهي:

أولا: استئصال المأمون نصائح الإمام عليه السلام ومواعظه:

كان إمامنا لا ينفك عن توجيه النصيح والإرشاد للمأمون، يحثه على الاستقامة والتقوى ويخوفه من عواقب المعصية ويوصيه بالرفق بالرعية، وكان المأمون يُظهر قبوله بذلك ولكنه في حقيقة الحال يخفي غضبه وسخطه ويتبرم من نصائح الإمام عليه السلام. فوجد فيه عائقا يحول دون تمتعه بالسلطة ومغرياتها بدون رقيب أو معارض، ومن الشواهد على ذلك قول الطبرسي: «كان سبب قتل المأمون إياه أنه عليه السلام كان لا يحابي المأمون في

(١) بحار الأنوار ٤٩: ٣١٢ - ٣١٣.

حق ويجيبه في أكثر أحواله بما يُغِظه ويحقدّه عليه، ولا يُظهر ذلك له، وكان عليه السلام يُكثر وعظه إذا خلا به، ويخوّفه الله تعالى، وكان المأمون يظهر قبول ذلك ويبطن خلافه ^(١).

كان الإمام الرضا عليه السلام لا ييخل على المأمون بنصائحه القيمة، وخاصة ما يتعلق بالشؤون العامة، ويمحضه أياها ولو تعارضت مع مصلحته الشخصية، إحساساً منه بالمسؤولية الشرعية، وبأن الدين النصيحة.

يروى سبط ابن الجوزي أن الرضا عليه السلام قال للمأمون: «النصح لك واجب، والغش لا يحل للمؤمن، إن العامة تكره ما فعلت معي، والخاصة تكره الفضل بن سهل، والرأي أن تنحينا عنك حتى تستقيم لك الخاصة والعامة، فيستقيم أمرك ^(٢)».

ثانياً: دافع الحسد:

وجد المأمون أن إمامنا قد بجر الأبواب وحيّر العقول بعلميته الفائقة وقطعه لحجة كل من حاجه أو ناظره. كما وجد أن إمامنا أظهر قدرة فائقة على مداراة الناس وحسن التصرف مما جعل الجماهير تتعاطف معه وتبارى في تكريمه والاحتفاء به، فحسده على مكانته العالية في نفوس العلماء والعوام على حد سواء، وكان ذلك أحد الدوافع التي جعلته يقدم على قتله حسداً له:

عن أحمد بن علي الأنصاري، قال: سألت أبا الصلت المروي فقلت

(١) اعلام الوری ٢: ٨٠، باب (٦).

(٢) تذكرة الخواص: ٣٥٥.

له: كيف طابت نفس المأمون بقتل الرضا عليه السلام مع إكرامه ومحبتته له وما جعل له من ولاية العهد بعده؟

فقال: إن المأمون إنما كان يكرمه ويحبّه لمعرفته بفضله، وجعل له ولاية العهد من بعده ليرى الناس انه راغب في الدنيا فيسقط محبّه من نفوسهم، فلما لم يظهر منه في ذلك للناس إلا ما ازداد به فضلا عندهم ومحلا في نفوسهم .. وكان الناس يقولون: واللّه انه أولى بالخلافة من المأمون، وكان أصحاب الأخبار يرفعون ذلك إليه فيغتاظ من ذلك ويشتد حسده له ^(١).

ثالثا - دسيسة الفضل بن سهل وأخيه:

المفارقة العجيبة أن الفضل بن سهل الذي عدّه البعض سببا - كما أسلفنا - لإقدام المأمون على إلزام الإمام عليه السلام بولاية العهد، عدّه البعض أيضا سببا في إقدام المأمون على قتل الإمام عليه السلام هذه المرة!. علما بأن الفضل بن سهل قد اغتيل والإمام على قيد الحياة، فكيف - والحال هذه - يشير على المأمون بذلك؟ اللهم إلا إذا كان المأمون يريد التخلص من الفضل بن سهل والإمام عليه السلام معا ليُرَضِي العامة والخاصة على حد سواء، فأقدم على اغتيال الفضل في الحَمَام، وعلى اغتيال الإمام عليه السلام بالسم.

ومهما يكن من أمر فان الشيخ المفيد رحمته الله يرى بأن الفضل وأخاه كانا يجرّضان المأمون على قتل الإمام عليه السلام وذلك لأن إمامنا: كان يُزري على الحسن والفضل - ابني سهل - عند المأمون إذا ذكرهما، ويصف له مساوئهما

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٥، ح ٣ باب (٥٩).

وينهاه عن الإصغاء إلى قولهما، وعرفا ذلك منه فجعلنا يحطبان عليه عند المأمون ويذكران له عنه ما يُبعده منه ويُخَوِّفانه من حمل الناس عليه، فلا يزالان كذلك حتى قلبا رأيه، وعمل على قتله عليه السلام .. (١).

رابعا - التقرب للعباسيين:

عمل المأمون على إعادة الجسور المقطوعة مع العباسيين، وترميم ما تهدم من علائق معهم، لذلك أتهم المأمون في قتله - أي الرضا عليه السلام - تقريبا للعباسيين (٢).

خامسا - الخوف من مبدأ النص:

لقد استبد القلق بالمأمون من تفاعل الأمة مع مبدأ «النص» الذي تتبناه مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ذلك المبدأ الأمثل الذي ترسخ في وعي الأمة منذ عهد الرسالة الأولى وازداد بفضل أهل البيت عليهم السلام ثباتا ورسوخا، وما جاء دور الإمام الرضا عليه السلام إلا وقد عقد المناظرات واحتج بمختلف الآيات البيئات زيادة على ما أدلى به من أحاديث آبائه الطاهرين عليهم السلام في مناسبات شتى، ونتيجة لذلك أدرك المأمون خطورة هذا المبدأ الذي دافع عنه الإمام بقوة في مقابل اطروحة السلطة القائمة على صيغة «الرضا من آل محمد» التي يكتنفها الغموض ويلفها الإبهام، وأثبتت الأيام عقمها وعدم مصداقيتها. من هنا لم يعد مستبعدا

(١) الإرشاد ٢: ٢٦٩، باب: ذكر وفاة الرضا عليه السلام وسببها.

(٢) تاريخ الإسلام السياسي والديني / الدكتور حسن ابراهيم حسن ٢: ٧١.

إقدام المأمون على تصفية الإمام بعد إيجاده تيارا جماهيريا واسعا يعتقد بذلك المبدأ.

يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين: لقد أدرك المأمون واكتشف بخبرته السياسية أن ظهور هذه التفاعلات - ويقصد بها الجماهيرية - يجب أن يكون الحد النهائي لهذه التجربة، تجربة: ولاية العهد. لقد اكتشف أنه فشل في تحقيق هدفه الاستراتيجي بشأن صيغة النص، وان الإمام هو الذي انتصر عليه في هذا المجال، فأثر أن يكتفي بما حققه من أهدافه الملحة العاجلة، قبل أن يتفاعل انتصار الإمام عليه السلام في مجال صيغة النص، فيخلق وضعاً لا سبيل إلى تداركه يلقي بخلافة المأمون في عاصفة قد تذهب بها في ثورة تحت شعار صيغة النص بنقائنها وصفائها. فأخى بيعة الموت بقتل الإمام الرضا عليه السلام بالسم ^(١).

والملاحظ أن هناك روايات يُخبر من خلالها الإمام عليه السلام بأن المأمون سيقتله بالسم كما قُتل أبوه وأكثر أجداده عليهم السلام، عن أبي الصلت الهروي قال، قال الرضا عليه السلام: « ما منا إلا مقتول، وإني لمقتول بالسم باغتيال من يغتالني، أعرف ذلك بعهد معهود إلي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أخبره به جبرئيل عن رب العالمين عزَّ وجلَّ » ^(٢).

كما كشف إمامنا لأبي الصلت الهروي فعلتهم الشنعاء، قال أبو الصلت: دخلت على الرضا عليه السلام، وقد خرج المأمون من عنده، فقال لي:

(١) الشيخ محمد مهدي شمس الدين / الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد، مجلة التوحيد، العدد ٣٤ - السنة الرابعة، محرم، صفر ١٤٠٧ هـ.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٢٠، ح ٥ باب (٤٦).

« يَأبَا الصَّلْتِ قَدْ فَعَلُوهُمَا » وَجَعَلَ يُؤَخِّدُ اللَّهَ وَيُجَدِّدُهُ ^(١) .

إن موت الإمام عليه السلام المفاجيء والغامض لا يُفسر بمعزل عن الظروف الضاغطة التي عاشها الإمام بعد إجباره على قبول ولاية العهد.

على أنه لا يمكن غض الطرف أيضا عما فعله المأمون مع الإمام قبل ولاية العهد أيضا، إذ أخرجها مكرها من بلده وحرم جدّه واستقدمه إلى خراسان.

وكان الألم والحزن يعتصر قلبه لفراق أهله، فعاش غريبا كما تعيش النبتة الغريبة في أرض غير أرضها ومناخ غير مناخها، حتى قضى نحبه عليه السلام شهيدا بطوس في قرية يقال لها «سباز»، ودفن في دار قحطبة الطائي في القبة التي فيها هارون الرشيد، إلى جانبه مما يلي القبلة، في يوم الجمعة أو الاثنين، في السابع عشر من صفر، أو التاسع والعشرين منه، وقيل في الحادي والعشرين من شهر رمضان أو في الثامن عشر من جمادى الأولى، أو في الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة ٢٠٣ هـ - أو سنة ٢٠٦ هـ - وقيل سنة ٢٠٢ .

ورجح الصدوق أن وفاته كانت في شهر رمضان لتسع بقين منه سنة ٢٠٣ هـ - عن تسع وأربعين سنة وستة أشهر ^(٢) .

فسلام عليه يوم وُلد ويوم استشهد ويوم يُبعث حيًّا، وصلى الله على نبينا محمد وآله الأكرمين الأطهار.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) الإرشاد ٢: ٢٧٠، باب: ذكر وفاة الرضا عليه السلام وسببها.

(٢) انظر: عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٨، ح ١، باب (٣).

المحتويات

| | |
|----|--|
| ٥ | مقدمة المركز |
| ٧ | المقدمة |
| ٩ | الفصل الأول |
| ٩ | عصر الإمام الرضا عليه السلام سياسيا وثقافيا |
| ١٠ | المبحث الأول: عصر الإمام الرضا عليه السلام سياسيا |
| ١٨ | المبحث الثاني: عصر الإمام الرضا عليه السلام ثقافيا |
| ٢٣ | الفصل الثاني |
| ٢٣ | الإمام الرضا عليه السلام قبل تولي الإمامة |
| ٢٣ | المبحث الأول: الولادة والنشأة |
| ٢٣ | أولا: الولادة |
| ٢٤ | ثانيا: النشأة |
| ٢٧ | معاصرته لمدرسة جده |
| ٣٠ | المدرسة السرية |
| ٣١ | المدرسة السّيارة |
| ٣٢ | أولا: المدينة المنورة |
| ٣٣ | ثانيا: البصرة |
| ٣٣ | ثالثا: الكوفة |
| ٣٤ | رابعا: نيسابور |
| ٣٦ | خامسا: مرو |
| ٣٨ | المبحث الثاني: الإمام الرضا في ظل أبيه عليه السلام |
| ٤٠ | المبحث الثالث: نسله الشريف |
| ٤٣ | الفصل الثالث |
| ٤٣ | الإمام الرضا عليه السلام بعد تولي الإمامة |
| ٤٧ | المبحث الأول: النص على الإمام الرضا عليه السلام بالإمامة |
| ٤٧ | أولا: من النصوص الدالة على إمامته عليه السلام |
| ٥٠ | ثانيا: أساليب الإمام الكاظم عليه السلام في النص على إمامة ولده الرضا عليه السلام |

- أولاً: أسلوب التلميح الشفوي: ٥١
- ثانياً: أسلوب التصريح الشفوي: ٥٤
- ثانياً: جواب الإمام الكاظم عليه السلام على سؤال (عمن سيخلفه في الإمامة): ٥٥
- ثالثاً: أسلوب الكتابة: ٥٨
- أسلوب الوصية: ٥٩
- خامساً: أسلوب الترغيب والترهيب ٦٠
- المبحث الثاني: بيان الإمام الرضا عليه السلام لحقيقة الإمامة ٦١
- أولاً: إخبار الإمام الرضا عليه السلام بإمامته: ٦٤
- ثانياً: إخبار الإمام الرضا عليه السلام بإمامة ابنه الجواد عليه السلام: ٧١
- ثالثاً: هوية الإمام المهدي (عج) في أخبار الرضا عليه السلام: ٧٢
- المبحث الثالث: قاعدة الإمامة في عصر الإمام الرضا عليه السلام: ٧٦
- أولاً: العلماء ٧٦
- ثانياً: جمهور الناس ٨٠
- ثالثاً: الشعراء ٨٢
- الفصل الرابع** ٨٥
- دور الإمام الرضا عليه السلام في صيانة الفكر الإسلامي** ٨٥
- المبحث الأول: حواراته عليه السلام مع أهل الأديان والملل والعقائد المختلفة ٨٨
- أولاً: إثبات نبوة نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكتب السماوية ٨٨
- ثانياً: إبطال عقيدة النصارى في المسيح عليه السلام: ٩٣
- ثالثاً: الرد على عقيدة اليهود ٩٦
- رابعاً: الرد على المجوس ٩٧
- خامساً: الرد على الصابئة: ٩٩
- سادساً: الرد على الزنادقة ١٠٠
- المبحث الثاني: حواراته مع أهل الإسلام ١٠٢
- أولاً: مناظرته عليه السلام حول عصمة الأنبياء عليهم السلام: ١٠٣
- ثانياً: مناظرته عليه السلام حول الإمامة ١٠٧
- ١ - الفرق بين العترة والأمة ١٠٨
- ٢ - استعراض الآيات الدالة على اصطفاء الأئمة عليهم السلام: ١٠٨

- ٣ - مكانة آل محمد ﷺ عند ربهم عز وجل ١٠٩
- ٤ - الأئمة عليهم السلام هم أهل الذكر: ١١٠
- ٥ - في الواقع التاريخي للخلافة ١١١
- ثالثا: مناظرته عليه السلام حول البداء ١١٤
- المبحث الثالث: أدوار أخرى في خدمة الفكر والعقيدة ١٢٠
- أولا: إيجاد الحلول الشافية في مسائل الخلاف ١٢٠
- ثانيا: تصحيح المفاهيم ١٢١
- ثالثا: كشف التحريف في الحديث ١٢٢
- رابعا: التأويل السليم لما دل بظاهرة على التشبيه والتجسيم: ١٢٤
- خامسا: بيان سر أخبار الغلو والتقصير ومصدرها ١٢٦
- سادسا: الآثار العلمية المنسوبة إلى الإمام الرضا عليه السلام ١٢٧
- المبحث الرابع: أساليبه التربوية وتعاليمه الراقية ١٢٨
- أولا: علاقة الإنسان بنفسه ١٢٩
- ثانيا: علاقة الإنسان بخالقه ١٣٩
- ثالثا: علاقة المسلم بنبيه ﷺ وأهل بيته عليهم السلام: ١٤٤
- رابعا: علاقته بأبناء جنسه ١٤٦
- الفصل الخامس ١٥٧**
- دوره في الحفاظ على هوية التشيع ١٥٧**
- المبحث الأول: موقفه من الغلو والغلاة: ١٥٨
- أولا: إن الغلو كان نتيجة الوضع في الأخبار: ١٥٩
- ثانيا: إن الأئمة عليهم السلام عباد مخلوقون وليسوا بألهة: ١٥٩
- ثالثا: تكفير الغلاة والزجر عن مخالطتهم: ١٦١
- رابعا: تشبيهه عليه السلام الغلاة باليهود ونظرائهم: ١٦٢
- المبحث الثاني: موقفه من الواقفة ١٦٢
- أولا: شبهة الواقفة بأن الإمام موسى الكاظم عليه السلام لم يمت ١٦٣
- ثانيا: زعمهم بأن الرضا عليه السلام ليس له ولد ١٦٥
- الفصل السادس ١٦٧**

- ١٦٧ ولاية العهد وآثارها على حياة الإمام
- ١٦٨ المبحث الأول: خلفيات ولاية العهد
- ١٧١ سياسة المأمون مع العلويين:
- ١٨٠ المبحث الثاني: موقف الإمام الرضا من ولاية العهد:
- ١٩١ المبحث الثالث: آثار ولاية العهد في شهادة الإمام الرضا عليه السلام:
- ١٩١ أولاً: استئصال المأمون نصائح الإمام عليه السلام ومواعظه:
- ١٩٢ ثانياً: دافع الحسد:
- ١٩٣ ثالثاً - دسياسة الفضل بن سهل وأخيه:
- ١٩٤ رابعاً - التقرب للعباسيين:
- ١٩٤ خامساً - الخوف من مبدأ النص: